كـــرك نـوح

ومقام النبي نوح (عليه السلام) فيـها

(القصّة الحقيقيّة للطوفان)

الـــــكـــــتـــاب : كرك نوح ومقام النبي نوح عليه السلام فيها

(القصة الحـقـيـقـيّـة للطوفـان)

المــؤلــف : الشيخ د. جـعـفـر الـمـهـاجـر .

البريد الألكتروني : dr.jaafarmohajer@gmail.com

إعداد مركز بهاء الدين العاملي (مبدع)

بعلبك لبنان هــاتـف : ٠٠٩٦١٨٣٧٧٧٥٦

الـطـبـعـة الأُولـــى ٢٠٢٠ م / ١٤٤١ هـ

نشر : دار بهاء الدين العاملي للنشر .

كــرك نـوح

ومقام النبي نوح عليه السلام فيـها

(القصّة الحقيقيّة للطوفان)

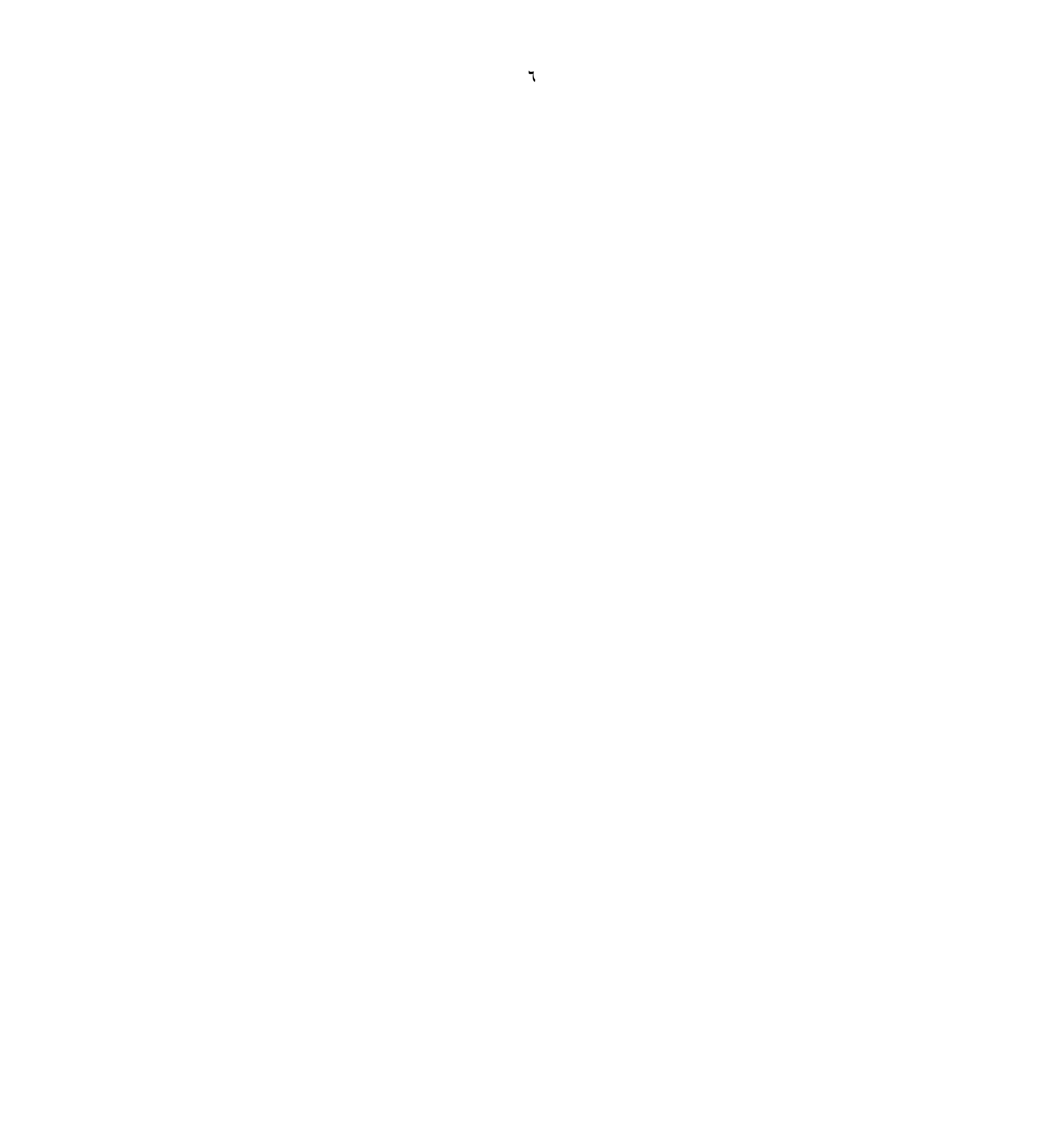
جعفـر المهاجــر

بسم الله الرحمن الرحيم

ربِّ انفعني بما علّمتني واجعله لي

ولا تجعله عليّ

فهرست موضوعات الكتاب



المقدمــة

(١)

لم يكن يخطرُ لي ببال أنّني سيأتي عليّ يومٌ من الأيام أفرغ فيه لموضوعٍ في مثل غموض واضطراب سيرة أول الرُسُل من أُولي العزم نوح عليه وعيهم السلام ، وفي أصالة مقامه المعروف في بلدة "كرك نوح" في "سهل البقاع" من "لبنان" اليوم . بما تُعانيه من اضطراب الأخبار عليها. ثم أن يسوقني البحث إلى الخوض في قصّة طوفانه وما فيهامن أسرار ، وما تُعانيه من اختلاف بين رُواتها ، وصولاً إلى تركيب ما رأينا فيه القصّة الحقيقيّة للطوفان . مع أنني كنتُ قد كتبتُ من قبلُ في سيرةِ ابنه شيث ومقامه في بلدة "النبي شيث" ، كتابةً انتشرت ولقيت قبولاً حسناً من القُرّاء . لكنّني أعترفُ الآن لقرّائي الأعزّاء بأنّها أتت قاصرةٌ عمّا يجب أن تكون عليه . وكان ينبغي أن تكون مسبوقةً بهذه الدّراسة عن أبيه نوح وعن طوفانه . بما أتاحته لنا من رؤيةٍ شاملةٍ لمواصفات الفترة والطوفان ومكانه . وهي شروطٌ ضروريّةٌ لكتابةٍ تأريخيّةٍ قريبةٍ من الصحّة .

(٢)

حتى أوحى إليّ مَن أُؤمنُ بحسّه القياديّ ، ومن ضمنه حسّه الفريد بعناصر العِمارة الثقافيّة للجمهور العريض الذي يُمثّله ،

وأين يجب على المُثقّف المُنتمي أن يُضيئ ، ــ أوحى إليّ بضرورة إخضاع إشكاليّات موضوع نوح عليه السلام وما يتصل به ، وخصوصاً أصالة مقامه في بلدة "كرك نوح" ، للعمل النقدي للباحث . ابتغاء أن ننقله من الموقع الموروث لوُجدان الجمهور، إلى موقع الحقيقة التاريخيّة المُبرهَن عليها . بعد أن تكون قد عبرت صراطَ العمل النقدي للمؤرّخ الآهِل . وتلك نقلةٌ نوعيّةٌ في مصلحة الاثنين معاً . في مصلحة الجمهور، من حيث أنّها تُحرّك وُجدانَه من موقع الوعاء الذي تصبُّ في مخياله عناصر موروثة لم تمُرَّ بمصفاةٍ نقديّة . و في مصلحة الموضوع ، من حيث أنها تحرّره ممّا علِق به من غُثاء ، وهو يتحرّك مُرغَماً بطاقة الزمان الجبارة . حاملاً معه ، مُرغَماً أيضاً ، عناصر أُسطوريّة تبتعدُ به مسافةً طويلةً عن ثوابت التاريخ ومنطق الأشياء .

(٣)

لذلك فإنّ من أوّل ماسيضطلعُ به بحثُنا القادم أن يزيحَ تلك العناصر الأُسطوريّة جانباً، وأن يضعها في الموقع الذي تستحقّه . لها أساسُها التاريخيّ ، نعم ! لكنّها ، بعد أن خرَجَتْ على حقائق وثوابت التاريخ بتأثير المخيال الأُسطوري ، بات من الضروري أن نُخضعها لغربالنا النّقدي . الأساطير ستستقرّ تحت الغربال، لنتركها برسم مَن يهمّه أمرها. أمّا ثوابت التاريخ فستبقى في الغربال ، ومنها سنُركّب ما

كان حتى ما قبل دراستنا هذه في مرتبة الأسرار المكتومة ، من سيرة النبي نوحٍ عليه السلام ، إلى قصّة طوفانه .

(٤)

أقدمُ مصدرٍ لطوفان نوح ، وإن يكُن بنحو الأُسطورة ، نجِده في التوراة . ثم أنّ أوسعها بالنسبة إلينا هو المجموعة الكبيرة من الروايات ، التي سيقت تحت عنوانٍ مؤثّرٍ: (حديث) ، آثرنا أن نُسمّيها في متن الكتاب (أدبيّات) ، تجليلاً للحديث الشريف عن أن يوغل في الذهنيّة الأُسطوريّة أو توغل فيه . لأنّني اكتشفتُ بسرعة أنّها إجمالاً نسخةٌ أمينةٌ عن رواية التوراة ، بكامل هُويتها الأُسطوريّة . وإن هي سُجّلت و من ثَمّ وصلت إلينا تحت عنوان (حديث) أو (تفسير) .

أمّا المادة التاريخيّة ، التي تستحقُّ الاعتبار على سيرة نوح عليه السلام وقصة طوفانه ، فإنها معروضةٌ في القرآن العزيز، وخبيئةٌ في الذّاكرة الشعبيّة المحلّيّة ، ماهو منها عملانيٌّ ، نقرأه في سلوك الناس . ومنها ما هو منها رواياتٌ من أصلٍ شفويّ ، سجّلها الرُّواة في نصوصٍ تأريخيّة أو بلدانيّة أو في الشعر. كما أنّها خبيئةٌ أيضاً فيما هو منها ما يزال ماثلاً مادّيّاً على صفحة الأرض من أثرٍ لأبطالها ، حيث ثبت لدينا أنّه الوطن الحقيقي لنوح عليه السلام ، وحيث عاش هو وأولاده ، وحيث كان موضع طوفانه .

(٥)

أملي وطيدٌ في أنّني ، بهذا العرض الموجز لإشكاليّة الكتاب وللخطّة والمنهج اللذين التزمتهما فيه ، ولعملي على المّادّة ذات العلاقة بالبحث ، أن أكون قد أعددتُ القارئ لتقبُّل نتائجه.

والحمد لله

بعلبك في ١١تشرين الأول/اكتوبر ٢٠٢٠م

الفصل الأوّل

الأرضُ وعُمّارُها

(١) تعريف

"الكَرَك" كما هو دائرٌ على الألسنة اليوم . أو "كَرَك نوح" ، كما كان دائماً منذ القِدَم ، بلدٌ في وسط "سهل البقاع" من الجمهوريّة اللبنانيّة ، على فم الطريق الصّاعد إلى "كسروان" في "جبل لبنان". يبلغ عدد سكانها اليومَ زُهاء العشرين ألفاً . تتبع إداريّاً اليومَ مدينة "زحلة" ، بل هي منها بهذا الاعتبار .

كانت " الكرك " في ماضيها غير البعيد حاضرةَ منطقتها ، والمركزَ السياسي والإداري لِما حولها من "البقاع العزيزي" [1] ، شرق "سهل البقاع" . إلى جوارها قُرى ومزارع صغيرةٌ ، اسماؤها اليوم "زحلة" ، "المُعلّقة" ، "حوش الأُمرا" . فلما نمَت "زحلة" سُكّانيّاً بالهجرة الكثيفة المسيحيّة الكاثوليكيّة إليها ، من أنحاء شمال " سهل البقاع " ومن " القلمون " ومن " الأناضول " ومن " جبل لبنان الشمالي" ، في

---

١ ــ ابنُ فضل الله العُمري : *التعريف بالمُصطلح الشريف*، ط . بيروت ١٩٨٨ م / ١٧٩ . والقلقشندي : صبح *الاعشى* ، ط . القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشـاد القومي، لات: ٤ / ١١٠ .

القرن التاسع عشر الميلادي، ــ امتدّ عمرانُ "زحلة" إلى أن اتصلت القُرى بعضها ببعض ، لتؤلّف معاً مدينةً واحدةً [١] . هي إداريّاً الآن حاضرة ماحولها من القُرى والبلدان. وباتت "الكرك" حيّاً من أحيائها مُلحقاً بـ "المُعلّقة" ، اسمه الرسمي، في الإدارة المدنيّة والدوائر العقاريّة، "معلّقة بناء" (!) .

البلدانيّون القدماء إجمالاً يضبطون اسمها بسكون الرّاء "كَرْك". منهم ياقوت الحموي حيث قال :"**كَرْك بسكون الرّاء وآخره كاف ، قريةٌ في أصل جبل لبنان من شرقيّه ، مُطلّةٌ على سهل البقاع**" [٢] . ونحن نُثبتُ مؤقّتاً هذه القراءة للاسم، وما قيل أنّه يعني بالآراميّة الغربيّة / الشامية "**حصناً ذا سورٍ يُطيف به**" [٣]. ومنه بالآراميّة الشرقيّة / العراقيّة " الكَرْخ " من أحياء "بغداد". وعلى هذا يُقالُ أن أصل البلدة السُكّاني موقعٌ مُحصّنٌ قديمٌ ، على الطريق ذي القيمة الاستراتيجّة

١ــ عيسى اسكندر المعلوف : *دواني القطوف* ، ط. زحلة ، لات / ١٢٠.

٢ ــ معجم *البلدان* ، مادة " كرك " . وانظر المادة نفسها في *المشترك وضعاً المُفترق صقعاً .*

٣ــ أنيس فريحة : معجم *أسماء المدن والقرى اللبنانيّة .* ط . بيروت ١٩٨٢ م / ١٤٥ .

الهامّة المُوصلة إلى "دمشق" . شأن سلسلةٍ من مواقع عدّةً مُماثلة : حصن "اللبوة" ، حصن "قصرنبا"، وقيل التلال المعروفة اليوم بـ "تلال الدلهميّة" أيضاً. أبرزُها وأحصنها قلعة "بعلبك" الشهيرة .

(٢) في الظهير التاريخي السُكّاني

والظاهر أن أصل البلدة السُكّاني / العُمراني يرجع إلى قرية "بحوشيّة" الدّاثرة ، التي كانت قديماً شمالي "الكرك" ، على رأس الهضبة التي تستقر هذه أدناها . ولم يبقَ منها اليوم سوى خرائب مسجدٍ أو أكثر، وآثارُ قبورٍ دوارس . يحتفرها هُواةُ البحث عن الآثار والعاديّات . حيث قد يعثرون على ما قد يوضع مع الدّفين عادةً من سجدة صلاته أو خاتمه العقيق. ومن مُقتنياتي بعض هذه السّجدات الطين،رُقمت عليها من رموزٍ شيعيّة،تدلُّ على عراقة أهلها في التّشيّع.

على أنّ موقع "بحوشيّة" احتفظ باسمها حتى بعد أن درست ، وما زالت تُعرف حتى اليوم باسم مُحرَّف "بحوشه" .

لسنا نعرف ، وأنّى لنا ، الظروف التي أودت إلى اندثار "بحوشيّة "، والتّحوُّل السُكاني باتجاه "الكرك"، فنهوضُ هذه من موقعٍ وقبرٍ وحيدٍ إلى حاضرةٍ عامرةٍ بالسُكان. وإن نكُن لانشكُّ في أن ذلك قد حصل بالتدرُّج البطيء، بحيث أن القريتين تساكنتا مدةً طويلة جداً ، قبل أن تندثر "بحوشيّة" ويهجرها سكانُها إلى "الكرك" وغيرها .

وقيل إنّ الإمام الأوزاعي (نسبةً إلى الأوزاع ، من بطون همْدان) ، الذي وُلد سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٦ م في "بعلبك" ، ومات أبوه فيها وابنه صغير ، انتقلت به أُمُّه إلى "الكرك" فأخذ العلم بها [١] . الأمر الذي فهم منه مَن أخذ بهذا الكلام (!) أن " الكرك " كانت يومذاك آهلـــةً ، عامرةً عمراناً ما بأهل العلم ، في العشر الأخير من القرن الأول للهجرة /السابع للميلاد .

ثم أنّ "بحوشيّة" وُصفت في مصدرٍ من القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد بأنها " **شمال كرك نوح** " [٢] . وأنّ أوّلَ مَن نُسب إلى "الكرك" باسمه من أهل العلم هو أحمد بن طارق بن سنان الكركي(٥٢٧ ـ ٥٩٢هـ/ ١١٣٢ــ .١١٩٥م) الذي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. بل ومن قبله " **كان جدّه قاضي كرك نوح** " [٣]. وما من قاضٍ إلا في بلدٍ عامرٍ مأهول . أي في الوقت نفسه الذي كانت فيه "بحوشيّة" عامرةً أيضاً . وما من ريبٍ في

---

١ ـ ابن كثير : *البداية والنهاية* ، ط. بيروت ١٩٦٦ : ١٠ / ١١٥ .

٢ــ اليونيني : *ذيل مرآة الزمان* ، ط . حيدر آباد الدكن ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤م : ٣ / ٦٦ .

٣ــ الذهبي : سير *أعلام النبلاء* ، ط. بيروت ١٩٨٤م : ٢١ / ٢٧٠ .

أنّ الرجليَن كانا شيعييَّن. ومع ذلك فإنّ الحفيد منهما وصفه ابنُ ماكولا بـ" **الشيخ الأجلّ**" [١]. وقال فيه ياقوت:" **كان ثقةً في الحديث[. . .] وكان رافضيّاً** " [٢]. وقد علّق ابنُ حجر على الكلمة الأخيرة في نصّ ياقوت بحق ابن سنان بقوله: "**وياقوت مُتّهمٌ بالنَّصْب. فالشيعي عنده رافضي**" [٣].

نذكرُ أيضاً ، في سياق بيان هذا الظّهير التاريخي لـ "الكرك" ، الأميرَ الفقيه نجم الدين محمد بن المُوفّق ابن الزّهر، من أسلاف أُسرة آل الزّهر ، التي ما يزال أبناؤها في المنطقة حتى اليوم ، الذي توفي في ١٧ رجب/ ٦٧٢ هـ/ ١٢٧١م "**بقرية بحوشيّة ، ودُفن بها عند أهله**". ثم أخاه الأمير سيف الدين عيسى ، الذي كان من "**أعيان الأُمراء الجبليّة . ووالده الأمير ناصر، كان خصيصاً بالملك الصالح عماد الدين** [الأيوبي صاحب دمشق] **توفي** [يعني الأمير سيف الدين] **ببعلبك ليلة الأحد في الخامس من رجب سنة ٦٧٢هـ** [٤]. **وحُمل إلى**

١ـ ابن ماكولا : *الإكمال* ، ط. حيدر آباد الدكن ، لات. : ٢ / ٦١ .

٢ــ معجم *البلدان* : ٤ / ٤٥٢ .

٣ ــ ابن حجر العسقلاني : *لسان الميزان*، ط . بيروت ١٣٩٠ هـ / ١٩٧١م : ١ / ١٨٨ .

٤ــ *ذيل مرآة الزمان* : ٣ / ٨١ .

قرية بحوشيّة ، من قُرى البقاع البعلبكي، وهي شمال كرك نوح ، فدُفن بها عند أهله" [١]. كما أن اليونيني يذكر عَرَضاً "الفقيه شمس الدين محمد الانصاري **المُقيم ببحوشيّة**" [٢] **(ح:٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)** .

يدلُّ ذلك على أن "بحوشيّة" سابقةٌ سُكّانياً / عُمرانيّاً على "الكرك" ، وأن البلدين قد تساكنا مدّة طويلة ، قبل أن تندثر "بحوشيّة" نهائيّاً لأسبابٍ غير معروفة . لكنّها بالتأكيد غير عنفيّة ، وإلا لَما خفيت . بل نُرجّح أنها تندرج في قوانين الأحوال البشريّة السُكّانيّة للبلدان في نموّها واندثارها . التي قد تخضع لأسبابٍ مناخيّةٍ أو معاشيّةٍ أو ثقافيّة أو طوبوغرافيّة .

ثم أنها تدلُّ ايضاً على حالةٍ من الازدهار الفكري في "بحوشيّة" ، يجب علينا أن نأخذها بعين الاعتبار بنحوٍ ما في مستقبل "الكرك" الآتي . ضرورة أنّ ذلك المُناخ ، الذي قرأناه بوجود ثلاثة فقهاء فيها في أزمنةٍ متقاربة ، أحدهم أميرٌ ــ فقيه ، لم يُذكروا حيث ذُكروا بقصد الاستيفاء والبيان التّامّيَن . ولا لمثل ما نقصُدُ إليه من إيرادها الآن . بل لأسبابٍ فرديّةٍ مختلفة ، منها ما هو من بـاب المصادفـات .

١ــ نفسه : ٣ / ٦٦.

٢ ــ أيضاً : ٣ / ٤٣٥ .

لولاها لضاع ذكرهم نهائيّاً . لذلك نقول لا بدّ للمؤرخ الحاذق من أن يفترض أن أولئك الفقهاء الثلاثة هم مُجرّد عيّنة / أنموذج عن حالةٍ ثقافيّةٍ أوفى وأكبر.

(٣) بحوشيّة وكسروان

مامن ريبٍ عندنا في أنّ حالة "بحوشيّة" الثقافيّة هي جزءٌ من ظاهرةٍ أعمّ وأكبر، تتصل اتصالاً وثيقاً بـ " كسروان " المُجاورة ، وبما كانت عليه أحوالها الثقافيّة الذّاتيّة قبل نكبتها سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م. فقضت قضاءً مُبرماً على وضعها السُكّاني التاريخي ، وضمناً وبالتّبَع على هُويتها الثقافيّة وعلى رموزها من النُخبة .

من ذلك ما يُذكر على فقهاء وعلماء بني العَوْد ، شيوخ "كسروان" ، الذين ما كان لنا أن نعرف عنهم وعن أحوالهم شيئاً لولا الإشارة إليهم في رسالة مهندس النكبة ابن تيمية الحرّاني إلى السلطان المملوكي، التي أثبتها تلميذه ابن عبد الهادي في كتابه على (مناقب !) شيخه ، واصفاً ضمناً ما كان لبني العوْد من مكانةٍ عاليةٍ بين قومهم ، وما كان لهم من مؤلفات مُنتشرة بينهم [١] .

---

١ ــــ محمد بن عبد الهادي : *العقود الدريّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيميّة* ، ط . القاهرة ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م/١٨٢ـ٨٤ .

ومن ذلك أيضاً آل الأحواضي الفقهاء الشيعة في قرية "حراجل" الكسروانيّة ، المعروفة اليوم بالاسم نفسه، وإن حالت بها الأحوالُ اليوم كثيراً عمّا كانت عليه . يترجم الصفدي لأحد كبارهم"**مفيد الدين الأحواضي ، محمد بن جمال الدين عبد الله بن أبي أُسامة**" . واصفاً إياه بـ "**رأس الشيعة وقدوتهم. مات بقرية حراجل من جبل الجُرد، وقد قارب الأربعين سنة أربع وسبعين وستماية. كان كثير الفنون لكنّه أحكم المنطق والفلسفة**" [١].

كما يذكر اليونينيُّ والدَه ، أعني والدَ مفيد الدين ، عبد الله بن أبي أُسامة الأحواضي ، فيصفه بـ " **شيخ الشيعة والمُقتدى به عندهم ، والمُشارُ إليه في مذهبهم** " [٢].

وممّا تجدر بنا ملاحظته هنا ، وصفُ الصفدي مفيدَ الدين ، في ذيل الترجمة له ، بأنه "**أحكم المنطق والفلسفة**"، التي تضمّنت إشارةً ضمنيّةً لاتخفى على العارف، إلى أنّه قد تجاوز ماهو ضروري ، بوصفه فقيه قومه ، و" **رأس الشيعة وقُدوتهم** " ، إلى إحكام علِميَن

١ـ الصفدي: *الوافي بالوفيات*، ط. بيروت ، المعهد الألماني للدراسات الشرقيّة ، في سنواتٍ متفاوتة : ٢ / ٣٠٩ .

٢ ــ ذيل مرآة الزمان : ٣ / ١٥١ .

يحتلاّن مكاناً رفيعاً في قمّة البُنية الفكريّة التقليديّة . لكنّهما بالنسبة للفقيه فُضولٌ لاضرورة له ، خصوصاً وهو يعيش في منطقةٍ جبليّةٍ منعزلة بأكثر من معنى من معاني العزلة . لا محلَّ فيها للفلسفة والمنطق بحال .

هكذا نرى في هذا النّصّ النادر إشارةً ضمنيّةً ، ليست تخفى على العارف، إلى أنّ المُناخ الثقافي لـ "كسروان" الشيعيّ قبل نكبته كان على درجةٍ عاليةٍ جداً من التنوع والخصوبة ، بحيث يُنجبُ مثقفين نُخبويين من وزن الشيخ مفيد الدين الاحواضي وموسوعيّته . لكنّ ذلك كلّه ضاع من أسف بذلك العمل الهمجي الذي هندسه الفقيه السُّلطوي ابن تيميّة الحرّاني. ثم عمل على خداع الناس والسُّلطة معاً ، بأن حاول أن يُقدّمه لهم من موقعه الفقاهتي المدعوم سياسيّاً بوصفه (فتحاً !) .

المُهمّ بالنسبة إلينا الآن أنّنا نرى من مُجمل تلك الأسماء الضائعة بين "كسروان" و"بحوشية" انتشارَ المُناخ الكسرواني الثقافي باتجاه "بحوشيّة" المجاورة. يقوده في حركته الجوارُ المكاني والوحدةُ الثقافيّة/المذهبيّة. وكلُّ ذلك يجب ضمّه إلى الأساس الذي ستنهض عليه "كرك نوح" في المستقبل .

ليس هذا فقط ، بل إنّ نمطاً آخر من الانتشار قام بين "كسروان" و "الكرك" ، سُكّاني هذه المرّة في بدايته ، ثم أخذ بُعداً ثقافيّاً

جذريّاً فيما بعد.

ذلك أنّ من آثار نكبة "كسروان"، أنّها نشرت سكانه فيما هو اليوم "لبنان"، حاملين معهم روح هويتهم الثقافيّة المؤودة ، التي ترجع تاريخيّاً إلى النهضة العظيمة لمدينة "طرابلس" [١] . وهذه ملاحظةٌ هامّةٌ جداً ، تستحقُّ بحثاً مستقلّاً نرجو أن نفرغ له إن شاء الله . أمّا الآن فسنكتفي منها بما يقتضيه البحث .

إنّ المؤرخ الحيادي ، إذ يتمعّن في تجييش الدولة المملوكيّة كلَّ قواها العسكريّة المحلّيّة لاجتياح بقعةٍ من دار الإسلام ، لَيكتشف دون صعوبة أنّ الغرض الحقيقي منه ليس معاقبة أهل "كسروان" على ذنبٍ مزعومٍ لم يرتكبوه ، وإن يكُن ابن تيميّة قد نظّر للاجتياح وما ارتُكب فيه من فظائع مهولة تحت هذا البهتان . بل لغرضٍ سياسي هو الحيلولة دون انتشار أهله في المناطق الساحليّة المُحرّرة من الصليبيين.أي أنّها بهذا السلوك كانت تُطبّق خطّةً سياسيّةً مُحكَمَةً مُتكاملة . قضت في مرحلتها الأُولى بهدم مدينتَي "طرابلس" و "صور" فور تحريرهما. ابتغاء الحيلولة دون عودة أهليهما الشيعة في "جبل لبنان" وفي "جبل عامل"

---

١ ــ للتوسّع في هذه الملاحظة الموجزة كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا* / ١٤٨ وما بعدها . لكنّ المسألة تستحقُّ مزيد بحث .

إليهما.(لاحظ هنا أنّها لم تُطبّق السياسة نفسها على بيروت وعكّا ، لأنّهما لم تكونا تحت التأثير السكاني الشيعي) كما قضت في مرحلتها الثانية بتهجير أهل "كسروان" منه . وبذلك يغدو كامل منطقة الساحل ذات الأهميّة الاستراتيجيّة خاليةً منهم .

يُجمل المؤرخ صالح بن يحيى الكلامَ على نتيجة الحملة على "كسروان" بالقول :" **فراح تحت السيف منهم خلقٌ كثير . والسّالم منهم تفرّقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك**"[١] .

(٤) الكرك تنهض سُكّانيّاً

السؤال : ما شأن "الكرك" في هذا السّياق ؟

الجواب : إنّها كانت في طليعة المُستفيدين من البعثرة السُكّانيّة الهائلة التي علقتْ بعد انجلاء معركة "كسروان" . بفضل قُربها المكاني والوحدة المذهبيّة مع النازحين منهم . الذين من الطبيعي أن يلجأوا في محنتهم إلى حيث أبناء جلدتهم . عرفنا ذلك ــ وبالحُسن حظّنا ــ من كتاب وقف السلطان المملوكي حسن بن محمد بن قلاوون (حكم:٧٤٨ـ٧٥٢ثم٧٥٥ـ٧٦٢هـ/١٣٤٧ـ١٣٦٠م) ، تاريخ الكتاب سنة ٧٦٠هـ /١٣٥٨م ، أي بعد بضع عقود من نكبة "كسروان". ومن هذه

---

١ ــ صالح بن يحيى : *تاريخ بيروت* ، ط. بيروت ١٩٥٠م / ٩٦ .

الوقفيّة "**جميع القرية المعروفة بكرك نوح**". حيث ضمّنه أسماء عددٍ من المالكين في البلدة. وبذلك أفادنا ، دون أن يقصد ، بأسماء عددٍ من المنسوبين إلى " كسروان": **(الكسرواني)** الذين نزحوا إليها بعد نكبتهم[١] . ونحن نستفيدُ من هذا النّصّ النادر ، أنه بتاريخ الوقفيّة كانت في "الكرك " وفي قرية "زحلة" المجاورة ، المدينة اليوم، جاليةٌ كسروانيّةٌ كبيرة ذات أملاك عقاريّة . مع ضرورة ملاحظة أنّ النّصّ وإنْ يكُن قد ذكر أسماء عددٍ غير كثيرٍ منهم فقط . لكنّ هؤلاء هم الذين صادف أنهم كانوا ذلك الأوان من أصحاب العقارات ، التي اشتراها أو استولى عليها السلطان قبلُ أو تملّكها بقصد أن يوقفها . الأمر الذي يُخوّلنا أن نتصوّر أنه كان هناك غيرهم ، بل أكثر منهم ، ممّن لم يسمح لهم وضعهم ، بوصفهم مُكرَهين على النّزوح من أوطانهم ، بأن يتملّكوا عقارات في وطنهم الجديد .

هكذا، فيما نحسَب ، نَمَتْ "الكرك" سُكّانياً فيما يُشبه الفجأة بالمقاييس التاريخيّة . وهكذا كان لمُصيبة نكبة " كسروان " فوائدها في

١ــ *كتاب وقف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون على مدرسته بالرميلة* . دار نشر الكتاب العربي برلين ــ بيروت٢٠٠١م/ ٦٦ و٧٤ و ٧٤ و ٨١ و ٨٣ بالتوالي .

نشْر الشيعة في مناطق جديدة ممّا هو "لبنان" [١]. الأمر الذي ماكان له أن يحصل بالنّمو السكاني والانتشار السّلمي .

والحقيقة أنّ ما رأى فيه الرّاؤون بحقّ نكبةً في أوانه ، قد عزّزت وجود الشيعة سُكّانيّاً في أنحاء كثيرة من "لبنان" . أشار إليها ابنُ يحيى إشارةً موجزةً في النصّ المُقتبَس عنه قبل قليل. حيث قال:"**تفرّقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك**" ولكنّنا بالبحث وقفنا على وسجّلنا إشاراتٍ موافقة لِما أتانا به ، لكنّها عندنا غنيّة ومُفصّلَة على الانتشار الشيعي الذي ترتّب عليها .

هل بوسعنا أن نبني على نتائج هذا البحث ، أنّ "الكرك" قد نَمَتْ سُكّانيّاً ، بحيث غطّت على أُمّها"بحوشيّة"، بـ (فضل) النّزوح الهائل لأهل "كسروان" إليها بعد تهجيرهم ؟

نقولُ في الجواب: نعم ! كبيرة . على الرغم من غياب النّصّ المباشر عليه . ذلك لأننا نلاحظُ أنّ "الكرك" قد بدأت تظهر في النصوص والاحداث منذ أواسط القرن الثامن للهجرة/الرابع عشرللميلاد.

---

١ ــ للقارئ الطُّلعة الذي يرغب بالتوسّع في هذه النقطة أن يرجع إلى كتابنا *الشهيد الأول* محمد *بن مكي الجزيني* / ٤٧ وما بعدها ، حيث بيّنّا معالم الانتشار السُكّاني الشيعي في الأنحاء بعد نكبة كسروان .

أي بعد عقودٍ قليلةٍ من نكبة "كسروان" ، أمّا قبل ذلك فلم تكُن شيئاً مذكورا. بل كان الذكر كلّه ، سياسيّاً وثقافيّاً واجتماعيّاً ، لجارتها المسكينة "بحوشيّة" .

من إمارات نموها أنّ أوّل مَن نقع على ذكره من سلسلة أعلام "الكرك" الكثيرين الآتين حسين بن محمد بن هلال الكركي . وهو تلميذٌ للشهيد الأوّل محمد بن مكي الجزّيني، بطلُ نهضة التشيع في "جبل عامل". التقى به وقرأ عليه في "الحلّة". ثم حصل منه على إجازةٍ بتاريخ ١٢ شعبان٧٥٧هـ/١٣٥٦م . وما يزال نصُّ الإجازة محفوظاً بتمامه [١] .

بل ونُضيف إنّ مجرّد انبعاث ابن هلال إلى الارتحال إلى "الحلّة" في طلب العلم ، عن غير سابقةٍ من أهل بلده ، ومن كلّ جوارها القريب في "سهل البقاع" ، ــ لدليلٌ على روحٍ جديدةٍ قد بدأت تسكن "الكرك" ، سيكون لها كبيرَ الشأن في مستقبلها القريب . لسنا نستبعد أن تكون هذه الرّوح هي ممّا حملته الجاليةُ الكسروانيّةُ الكبيرةُ إليها. وهي التي فقدت ذاتيّتها العلميّة بما نزل بها ، حيث كانت تُنجب نُخبَها العلميّة من ذاتها وبذاتها، دونما حاجةٍ منهم إلى الارتحال

---

١ ــ عبد الله أفندي الإصفهاني : *رياض العلماء وحياض الفضلاء* ، ط. قم ١٤٠١ هـ : ٣ / ٣٧٤ .

إلى خارجها. ولولا نكبتها لربما تطوّرت بها الأحوال بالاتجاه نفسه ، فكانت وطنَ نهضة التشيّع المُنتظرَة في "لبنان" دون وقبل "جزّين" في "جبل عامل" .

أمّا الآن، وبعد أن نزل بها وبهم مانزل من تقتيلٍ وتهجير، فقد بدأ من أبنائها مَن يوجّه وجهه صوب "الحلّة" في " العراق " ، التي كانت آنذاك المركز العلمي الشيعي الأبـرز، طلباً للعلم . كما فعل وسيفعلُ نُخَبُ " جبل عامل " بعد قليل . وكان ابنُ هلال رائدَ وطليعةَ التّوجّهات الجديدة .

ممّا يُعزّزُ ويُكملُ هذا التحليل أن نُضيف أنّ بطل نهضة "الكرك" القادمة سيكون الحسن بن أحمد بن يوسف **الكسرواني** ، الشهير بابن العشرة (ت: ٨٦٢ هـ /١٤٥٧م) الكسرواني الأصل كما تشهد نسبته . وهو من أخلاف الذين هجّرتهم النكبة إلى "الكرك" فيما يبدو. لكنّه حمل إلى "الكرك" مواصفات وروح وطن أسلافه . ثم بنى عليها فأحسن البناء وأعلى . وكان من عميم فضله أنّه وضع الأساس لنهضة مهجره . ومنه انداحت شرقاً باتجاه "إيران" النّاهضة على أيدي أبنائها . بحيث جعلت من "الكرك" أحد أبعد البلدان أثراً في التاريخ المَشرقي في ذلك الأوان وبعده . وقد روينا قصّتها بالتفصيل الكافي في كتابينا: *الهجرة العامليّة إلى إيران في العهد الصفوي* ، وفي *نشأة الفقه*

الإمامي ومدارسه . فضلاًعن الترجمة التي علّقناها لابن العشرة الكسرواني في كتابنا *أعلام الشيعة*.

***

هكذا نكون بهذا السّرْد الموجز لبعض تاريخ "كرك نوح"، تحت عنوان "الأرض وعُمّارُها " ، قد بنينا تأريخاً على قدرٍ من الخُصوبة لانبعاثها بين البلدان . انبعاثاً سُكّانياً في الأساس ، ثم انبعاثاً نهضوياً وقفنا منه الآن على حدّ الضرورة. اجتناباً للتكرار غير النافع ، واعتماداً على سوابق لنا أوفى في هذا المضمار، أشرنا إليه أعلاه . للقارئ الطُّلعة أن يرجع إليها .

وعلى كلّ حال ، فإنّ الانبعاثيَن كليهما وجهان لعُملةٍ واحدة . لُحمتها وسُداها قُدرة التشيّع المدهشة على تجاوز الأزمات المصيريّة التي تُحدق به . لالسبب إلا لأنه بريءٌ من الذهنيّة التوفيقيّة ، التي منحت غيره من المذاهب الإسلاميّة الخِبرةَ والقدرةَ على التّكيّف مع كلّ ما يحيق بأبناء الزمان من أشكال وأنماط وأشخاص الأنظمة الحاكمة . بأن تستخرج لها ، من مخزونها الواسع المُتنوّع الصيغةَ الملائمةَ للنظام القائم . مهما يكُن ، ومهما تكُن الوسيلة التي ركبها للاستيلاء على السُلطة . فتمنحه دائماً وأبداً صفةَ الشّرعيّة ، كما تمنحُ المُستولي عليها صفة الإمامة (الإمام) . وبذلك يتشكّل ثُنائيُّ السّيف والقلم : الأمير

والفقيه الرّسمي . على قاعدةٍ من تبادل المنافع بينهما. لكنّ هذه الآليّة كانت تنتهي دائماً باستتباع الفقيه للأمير ، لِما فيه مصلحة هذا الأخير حصراً. بل وصلت بالفعل إلى استلاب حريّة الفقيه في البحث والنظر(الاجتهاد) ، وضَرْب الحظر التّامّ على قدرته على المُبادرة . ذلك يوم أعلن أوّلُ سلاطين المماليك البحريّة الظاهر بيبرس البندقداري (حكم:٦٥٨ ــ ٦٧٦هـ /١٢٥٩ـ ١٢٧٧م) حصرَ المذاهب بالأربعة المعروفة . ممّا هو معروفٌ مشهورٌ بين الكافّة .

والحقيقة أنّ مارمينا إليه من وراء هذا السّرد التأريخي، أن يكون مدخلاً إلى إشكاليّة الكتاب الأساسيّة ، التي تدورُ على المقام المنسوب إلى النبي نوح عليه السلام فيها ، وبيان حظّه من الأصالة . ثم بيان حقيقة طوفان نوح عليه السلام وما ترتّب عليه من دورٍ حضاري . اللذان سيكونان الموضوعين الرئيسيَن فيما سيأتي من الكتاب . عملنا الأساسيّ فيهما تحديد الإشكاليّات التفصيليّة ، التي سيكون علينا أن ننقدها ونعالجها في الفصل التالي .

الفصل الثانــي

مقام نوح عليه السلام وغلافه الطوبوغرافي

(١) مراجعةٌ نقديّة

في هذا الفصل سنرصد العلاقة بين المقام والمدينة التي نهضت بفضله . أو ، كفرضيّةٍ مؤقّتة لابُدّ منها ، هو : (المقام) الذي نهض منها . ابتغاء البدء بمعالجة إشكاليّة أصالته . فنقول :

لسنا نأخذ بما تفـرّد بـه ابن منظور في كتابه *لسان العرب* ، مادة "كَرْك" ، أن الكلمة هنا بمعنى الجبل . وذلك لسببٍ بسيط ، هو أنّه ما من جبلٍ هناك في نماذج "كرك" كلّها، سواءٌ في المنسوبة إلى نوح في "لبنان"، أم في المنسوبة إلى الشّوبك في "الأُردنّ"، أم في "كَرْخ" "بغداد". وعلى كلّ حال فإنّ ابن منظور رجل لغة ، لاشأن له بالمعالم الجغرافيّة والبلدانيّة وبلبالها .

وأيضاً لسنا نأخذ بما ذهب إليه أنيس فريحة ، ووقفنا عليه في الفصل السابق ، أنّ كلمة "كِرْخا" تعني موقعاً أو مدينةً مُحصّنة . لأننا لا نجد أثراً للتحصين في النماذج الثلاثة. بل إنّ أُنموذج "كرك نوح" منها يقوم على أرضٍ ، وإن تكن مرتفعة قليلاً عن مستوى السهل ، لكنها أقرب إلى الانبساط ، وليست ممّا يصلح لإشادة مبنىً دفاعي

عليها . كما أنها ليست ممّا درج عليه بُناة الحصون في اختيار الأماكن العالية التي تهِبُ تحصيناتهم مناعةً إضافيّة . مع أن الأرض المُرتفعة على مرمى حجر من رُقعة المدينة . صعوداً حيث كانت بلدة "بحوشيّة" الدّارسة .

هذا، بالإضافة إلى أنّ هذا النّمط من الابنيّة هو من أبقاها على مرّ الزمان . وآثار الأبنية الحصون في "اللبوة" و "بعلبك" و"قصرنبا" و "نيحا" وغيرها ، وكلّها ما تزالُ قائمة في الجوار، خير شاهدٍ على ذلك. فلو كان اصل " كرك نوح " موقعاً أومدينةً مُحصّنَة لبقيت آثارُه . إذن ، فغيابُ الأثر المُفترَض لَيدلّ على غياب المؤثّر المَزعوم .

الأثرُ الوحيد الذي يُبرّر للمُتأمّل ماهو اسم القرية الباقي "الكرك " / "كرك نوح هو الضريح نفسه ليس غير. باعتباره المعلَمَ الطوبوغرافيَّ الوحيد البارز الثابت الوجود في المنطقة قبل تمصير البلدة ، الذي يُمكن أن يكون اسمها قد انتُزِع منه . خصوصاً أنّ الكلمة "كرَك " أو "كرْك" مهما يكُن معناها الدقيق ، هي من منشأٍ طوبوغرافي ولا ريب.

وليس نهوض البلدة حول المقام بالأمر البِدْع . بل إنّ الكثير من القُرى والبلدان في المنطقة وفي غيرها ، قد نهضت انطلاقاً من

معلَمٍ دينيّ سابق ، مقامٍ لنبيّ حقيقي أو موهوم حملت اسمه . وهناك أمثالٌ جمّةٌ على ذلك ، أقربها إلى "الكرك" قرية "النبي أيلا" المُجاورة التي تبعدُ عن "كرك نوح" بضع كيلومترات شرقاً، وبلدة "النبي شيث" التي تستقرّ غير بعيد على سفحٍ من سفوح سلسلة الجبال اللبنانيّة الشرقيّة ، مقابل "الكرك" إلى الشرق قليلا .

فهذا أوّل إمارةٍ على أصالة المقام بنفسه ، بصرف النّظر عن وجود البلدة وعدمه .

ولايغترّنّ القارئ كثيراً بالزّعم القائل ، إنّ "الكرك" كانت تحتوي على مؤسّسةٍ تعليميّةٍ ، بأيّ معنىً من المعاني ، في العشر الأخير من القرن الأوّل الهجري / الثامن الميلادي ، كما تقدّمت الإشارة إليه في الفصل السابق . وذلك استناداً إلى الرواية التي قـُوّلت بالرغم عنها ، إن الإمام الأوزاعي قد حملته أمّه إليها طفلاً ، وأنّه هناك تلقّى دروسه الأُولى .

ذلك أنّ هذا الفهم ينطوي على فهمٍ قاصرٍ ومُباينٍ جدّاً لنشأة المؤسّسة التعليميّة في الإسلام ، خصوصاً في المنطقة الشّاميّة منه . وهي التي لم تعرف هذا النّمط من المؤسسات عند غير الشيعة إلا بعد قرون من تاريخ موضوع النّصّ . حيث السلطان الأتابكي نور الدين محمود زنكي (٥٤١ ـ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ ــ ١١٧٣ م) ابتدع إنشاءَ

المدارس في أنحاء بلاد "الشام" عن غير سابقةٍ ، في أواسط القرن السادس للهجرة /الثاني عشر للميلاد . وذلك في سياق الحرب المعنويّة الشّاملة الجذريّة التي شنّها على الشيعة والتّشيُّع في"الشام" كلّه. وهم الذين كانوا السّبّاقين لغيرهم في ميدان الدّرس والبحث والتصنيف وإنتاج النُّخَب الفكريّة. حيث جعلوا من "حلب" و"طرابلس" المنارتيّن الوحيدتيَن العلميّتيَن في بلدان "الشام" كلّه. بل في كلّ العالَم الإسلامي في ذلك الأوان .

منشأ هذا الزّعم روايةٌ وردت في كتاب *محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي* ، حيث قال إن الأوزاعي "**وُلد في بعلبك سنة ثمانٍ وثمانين . ونشأ بالبقاع يتيماً في حِجر أُمّه . وكانت تنتقل به من بلدٍ إلى بلد**" [١].

ولستُ أدري كيف انزلق بعض المؤلفين من هذا النّصّ الغامض ، الذي كتبه مَن كتبه بعد زُهاء ستة قرون من حياة الأوزاعي،

---

١ ــ أحمد بن محمد الدمشقي الحنبلي (ت:٨٧٠هـ/١٤٦٥م) : *محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي*، ط. مطبعة عيسى البابي الحلبي،لات./ ٤٩. وانظر معجم *البلدان* ، مادة "بيروت" ، حيث نجدُ النّصَّ نفسه" **من بلدٍ إلى بلد** " دون ذكر "الكرك" .

ولم تُذكَر فيه "الكرك" على الإطلاق ، باتجاه القول أنّ الإمام قد بدأ تعاطي العلم ، على صغر سنّه ، فيها . ثم بنى بعضُهم على ذلك أنّها كانت "مدرسةً علميّةً مُبكّرة" (!) . ثم أضاف غيره فبنى عليها أيضاً ، على سبيل تفسير عجيبة نشوء مدرسة ومُدرّسين في ذلك التاريخ المُبكّر ، أنّ مؤسسي تلك المدرسة المزعومة هم من أبناء القبائل الشيعيّة المُهاجرة من "العراق" (!!) .

والحقيقة أنّ هذه السلسلة العجيبة من التزويقات ليست إلا أوهاماً وتخيّلات، قد يلجأُ إلى مثلها بعضُ المؤلفين بحذر ، لكن على سبيل الاحتمال ، حين تعوزهم النصوص الصريحة على الإشكاليّة التي يعالجونها. لكننا رأيناها هنا تُقال وتُكرّر وكأنها حقيقة سهلة لاشِيَةَ فيها.

نعم من الممكن (الممكن فقط ، في الحدّ الأقصى) أن يُقال إنّ الأُمَّ المسكينة قد لجأت بابنها الطفل اليتيم إلى مقام النبي نوح عليه السلام ، حيث يبدو أنّها عاشت لمدّةٍ على صدقات الزّائرين .

ومع ذلك نقول ، إنّ هذه نتيجةٌ حسنة بالنسبة إلى بُغيتنا من البحث في هذه المرحلة .

أوّلاً من حيث أنّها تدلُّ على أنّ نسبة المقام إلى النبي نوح (ع) ، والعناية به ، وقصده من الزّائرين ، هي موقفٌ وسلوكٌ كان معمولاً به منذ القرن الأول للهجرة ، أي أنّه بالضرورة استمرارٌ عمّا كان

الأمرُ عليه قبل الإسلام. وأنّه استمرّ من بعده دون أن يتوقّف .

وهذه نقطةٌ ثانيةٌ في صالح تأصيل المقام في التاريخ وفي الوُجدان العامّ معاً . لها عشرات النّظائر في المعالم الدينيّة وعلاقتها بتمصير البلدان .

وثانياً أنّ الصيت العلمي العريض لـ " الكرك " ، الذي اكتسبته فيما بعد ، هو الذي سمح أو أغرى مَن افتعل ذلك النسب العلمي للأوزاعي أن يصعد به في الزمان إليها دون غيرها.

هكذا يصِلُ بنا البحثُ إلى نتيجةٍ واضحةٍ شبه يقينيّة ، هي أن كلمة "كرْك" ، كما يقول البلدانيون ، بوصفها علَماً على بلدة "كرك نوح" ، آتيةٌ من المقام العريق للنبي نوح عليه السلام ، ولا شيء معه ولا شيء سواه . وأنّه ما كان هناك في البين لا جبلٌ ولا حصنٌ ولا مدينةٌ مُحصّنَة . أي بالتالي ، إنّ المقام كان منذ القدِم قائماً مُنفرداً بحجمه الكبير على رقبة الأرض المنبسطة من حوله . وهو هو الـ "الكرك" وليس غيره ، وليس معه سواه . وذلك ارتكازٌ عريقٌ بين الناس قديماً . بدليل أنّ كلمة "كرك" ، مجردةً من الإضافة ، اسماً للبلدة لم ترِد في المصادر القديمة ، ولا على الرقائم المنقوشة على الحجر، بل دائماً منسوبةً إلى نوح: "كرك نوح" . أي الـ "كرك" الذي هو لنوح . كما تقول مثلاً (قبر نوح).

والظاهر أن الحجم الطويل جداً للقبر هو الذي، فيما يبدو لنا، جعلَ الناس يُسمونه "كرك" ، مع نسبته دائماً إلى صاحبه نوح . لا لسبب إلا لأنه أكبر من أن يكون مجرد قبر كما كانوا يعرفون القبور .

في حين أن أقرب تجمّع سكانيّ إليه هو قرية "بحوشيّة" ، التي يدلُّ اسمُها الآرامي أيضاً على عراقتها ، قائمةٌ إلى الشمال الغربي منه ، على السّفح الذي يتجه صعوداً نحو "جبل لبنان"، خضوعاً لاعتباراتٍ أمنيّةٍ ، نراها في كلّ القرى القديمة في الجوار .

إذن فمقام النبي نوح عليه السلام هو الـ"كرْك" الذي وهب البلدة اسمها فيما بعد . وهذه هي الإمارة الثالثة على أصالته .

(٢) الكرك تنمو سُكانياً

الاعتبارات الأمنيّة ، التي حالت في الماضي دون نموّ ماحول المقام سُكّانيّاً ، سقطت بعد أن باتت المنطقة من دار الإسلام. ولم يعُد ثمة من يخشى خشية جِدّيّة من غزوٍ خارجي أو نزاعٍ عامٍّ داخلي ، يُملي على السكان ضرورة سُكنى الأعالي. هكذا بدأت المساكن تظهر حول المقام . وفي هذا السّياق يمكن أن نضع خبر لجوء أُمّ الإمام الأوزاعي بطفلها اليتيم إلى البلدة التي بدأت بالنهوض، ربما للإستفادة من مبرّات الزّائرين لإعالة نفسها وطفلها اليتيم .

وكما هو مُتوقّع ، فقد تتابع التطور السُكاني لـ "الكرك" ببطء.

بحيث احتاجت إلى أربعة قرون لتغدو على شيءٍ من الملاءة السكانيّة ، وبحيث تنصب السُلطة القضائيّة المركزيّة في "دمشق" أوّلَ قاضٍ فيها من أهلها نعرفه . هو جدّ المُحدّث أحمد بن طارق الكركي ، الذي عرفنا فيما فات أنه توفي سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥ م ، أي أنّ الجدّ القاضي عاش أواسط القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد . ومن ثَمّ بدأت "الكرك" تتقدّم سُكّانيّاً على جارتها "بحوشيّة" ، بحيث وُصفت هذه في القرن السابع / الثالث عشر بأنها "**شمال كرك نوح**" كما أسلفنا، قبل أن تندثر نهائيّاً غير بعيد .

من تمام الحديث على تحوّلات "الكرك" السُكانية الثقافيّة ، أن نُشير بسرعة إلى خطواتها المُتسارعة باتجاه نهضتها القادمة . حيث افتتح ابنُها حسين بن محمد بن هلال الكركي (ح:٧٥٧هـ/١٣٥٦م) النهضةَ في أوائل القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد ، بهجرته إلى "الحلّة" . ثم تابعها بلديُّه محمد بن عبد العالي الكركي (ت:٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) ، وهو فيما يبدو عمٌّ لأشهر مَن أنجبته البلدة علي بن عبد العالي الكركي ، الشهير بالمحقّق الكركي . وذلك بارتحاله إلى "جزّين" وتتلمذه فيها على باني نهضتها البكر الشهيد الأول. لنصِلَ في نهاية المطاف إلى الحسن بن يوسف بن العشرة الكسرواني ، الذي تابع خطوة سابقه بالارتحال إلى " جزين " ، حيث قـرأ على تلاميذ الشهيد أيضاً .

ليعود منها إلى بلده ، لكن ليجعل منها مقصداً للتلاميذ الطّامحين القادمين من " جبل عامل " ومن غيره . منهم مَن غدوا من معارف فقهاء زمانهم . وبهذه الوسيلة انطلقت "الكرك" باتجاه الموقع العالي الذي اكتسبه أبناؤها أثناء القرنين التاليين في "إيران" وفي غيرها . وغذّوا نهضتها بفكرٍ فقهيٍّ جديد . ذلك ما بسطناه في غير كتابٍ من كُتُبنا .

تلك هي قصّة "الكرك" بإيجاز. وانطلاقها من"كرْك"، هو ضريح النبي نوح عليه السلام ، ينتصبُ بحجمه الكبير وحيداً في بقعتها. إلى حاضرةٍ علميّة تُنبتُ أشجع وأنبل الرجال . وللقارئ الذي يرغب في تفصيل هذا الإيجاز أن يرجع إلى الفصل المخصص لـ "الكرك" في كتابنا *نشأة الفقه الإمامي ومدارسه* .

فيما سيأتي من الكتاب سنصرفُ البحث إلى المقام. وصفه والتعريف بمعالمه ، تاريخه ، نسبته إلى النبي نوح عليه السلام. ثم إلى ماجدّ عليه من ضروب العناية والاهتمام .الأمر الذي يصبُّ في النهاية بإشكاليّة أصالته ، القضيّة الأساس للكتاب . بادئين بما يتصل بتاريخ صاحب المقام ، ومن ثَمّ المقام نفسه .

الفصل الثالث

ضريح نوح عليه السلام ومقامُه

(توطئة)

نأتي فيها أولاً على تلخيصٍ سريعٍ لِما كنّا قد بسطنا الكلام عليه فيما سبق من البحث . ابتغاء معونة القارئ على ربط ماهو آتٍ بما قد فات. ونُثنّي بوصف المقام بأجزائه الثلاثة. ونُثلّثُ بالوقوف على ماينطوي عليه من دلالاتٍ تاريخيّة .

أوّلُها أننا كُنّا قد رجّحنا قويّاً فيما فات ، أنّ ضريح النبي نوح عليه السلام كان في بدو أمره قائماً حيث هو اليوم ، يمتدّ بطوله العجيب وحيداً في بقعةٍ خالية بياب. وأنّه هو هو الـ (كَرْك) الذي سيمنح البلد الذي سينهضُ من حوله الاسمَ الذي ماانفكّ يحمله حتى اليوم .

ومن الثابت أنّ المقام، حتى في حالته المتواضعة تلك ، كان مقصوداً من الزّائرين له والعاكفين عليه ، ومنهم أُمُّ الإمام الأوزاعي كما عرفنا . وأنّ هذا الاهتمام هو استمرارٌ لشعيرةٍ قديمة جدّاً ، ترتدُّ إلى ما قبل الإسلام بكثير.

وما من غَروٍ في ذلك ولا من عجب . فهو بالنسبة لسُكّان

المنطقة ضريح نبيّهم الأوّل . والاستمرارُ هو سيّد التاريخ كما يقولون بصدق . وما من استمرارٍ ينشأ دون بدايةٍ مناسبة في معناها وقوتها . فلولا أنّ الأسلاف الأقدمين كان من دأبهم وديدنهم زيارة الضريح والعكوف عليه ، وكانت زيارته تقليداً معمولاً به عندهم ، لَما كان من سببٍ لدى الأخلاف المسلمين من بعدهم للحفاظ عليه وزيارته . وهذه قاعدةٌ في الشعائر والطقوس الدينيّة وسرايتها بين الاجيال يعرفها ويبني عليها أهلُ الاختصاص .

ثم أننا سنعرفُ فيما يأتي إن شاء الله ، أن حضور النبي نوح عليه السلام قد استمرّ واستقوى بعد وفاته ، بما كان لابنه / وصيّه شيث عليه السلام من أعمالٍ وإنجازاتٍ حضاريّةٍ على غير مستوى . ما يجب اعتبارَه أرضيّةً صالحةً لاستمرار الاهتمام بضريح أبيه أثناء القرون ، بحيث استمرّ ووصل إلينا .

هكذا فإنّ الاهتمام به بذلك النحو قد عمّ وتزايد مع الوقت، بحيث أدّى ، مع توفُّر الشروط العمرانيّة ، إلى قيام المساكن شيئاً فشيئاً من حوله . مثلما يحدث غالباً بل وربما دائماً للتجمعات السُكانيّة ، التي تنمو حول مَعْلَمٍ من المعالم الدينيّة . بما تستولده من حركةٍ سُكّانيّةٍ جاذبةٍ باتجاهها ، تنتهي إلى تبلُّد الناس واستقرارهم من حوله . والأمثال على ذلك كثيرةٌ لا تتناهى .

وهكذا نعرفُ أيضاً ، أنّ ذلك النهوض السُكّاني المُتسارع لـ "الكرك" ، هو الذي كان العاملَ القوي المستور وراء اندثار قرية أو بلدة "بحوشيّة" المجاورة . مع أنّها كانت قبلُ ناهضةً . بل لعلّها كانت أكبر بلدان "سهل البقاع" الأوسط . فضلاً عن أنّها كانت عامرةً بغير أُسرةٍ من ذوات الشأن . بعض أبنائها، ممّن وصلنا ذكرهم ووقفنا عليه أعلاه ، من ذوي الحضور الاجتماعي والثقافي المحلّي على الأقلّ .

هنا لابدّ لنا من أن نُلاحظ ، أنّ في مواصفات ذلك النهوض للبلد الجديد دليلٌ على أنّه كان من القوّة والعزم بحيث قضى غير بعيد على جارته العريقة . لتموت بصمتٍ غير مأسوفٍ عليها من أحد . بل ودون أن يبقى منها في الذّاكرة الجَمْعيّة لأبناء المنطقة سوى اسمٌ ضائعٌ للبقعة اليباب اليوم حيث كانت في الماضي . فضلاً عن أنّه مُحرّفٍ عن اسمها الأصليّ : "بحوشة" كما تُسمّى اليوم ، بدلاً عن اسمها الأصلي الآرامي . لا يعرف حتى النّابهون من أبناءُ المنطقة ما يكتمه من تاريخٍ ضائع .

ثم ما من ريبٍ في أنّ تلك القوّة والعزم في نهوض "الكرك" قد اكتسبتها من تصاعد الاهتمام الرّسمي والشعبي بالمقام ، الذي كان السّرّ في أصل وجودها . وسيكون بيان ذلك التصاعد للاهتمام موضع العناية فيما سيأتي من هذا الفصل إن شاء الله .

(١) صفة المقام والضريح

الجسمُ الإجمالي للمقام من ثلاثة أبنية :

ــ **الضريح** . يمتدّ بيته شرقاً بغرب ، شبه عمودي على جسم المسجد ، بطوله : (الضريح) البالغ اثنين وأربعين متراً بعرض مترين ونصف المتر . وهو من الحجر المُشذّب ، بحيث يأخذ شكل قاربٍ مقلوب . وذلك شكلٌ غير مألوف في كلّ ما نعهده من أشكال الضرائح قديماً وحديثاً . ولذلك مغزاه طبعاً ، سنقفُ عليه فيما سنُعقّب به على الأوصاف المُجرّدة لأقسام المقام .

والظاهرأنّ الضريح بهندسته الحاليّة هو الوحيد من أجزاء المقام الثلاثة الذي لم يتعرّض للتعديل والتغيير في هندسته أثناء الازمان الخالية . بل احتفظ بشكله أثناء القرون الطّوال . وذلك يرجع طبعاً إلى المواد الصخريّة الصّلبة التي بُني بها ، ثم إلى هندسته الأُفُقيّة التي تعصى على الانهدام .

ــ **المسجد** . وهو في الجانب الغربي من المقام . طوله أربعة عشر متراً في عشرة أمتار. يتوسط جداره الجنوبي محرابٌ جميل . وللمقام بوّابتان قديمتان في الجدار نفسه ، إحداهما عن يمين المحراب ، والثانية عن شماله . وله بوّابةٌ ثالثةٌ في جداره الشرقي هي مدخله الحالي ، التي تُفضي إلى الصحن الخارجي .

وفي المسجد صفّان من الأعمدة تحملان السقف . كلُّ صفٍ من عمودين اثنين . أمّا المأذنة فهي في الجهة الشرقيّة . وجدران المسجد وبعض أعمدته حافل بالرقائم المنحوتة . الكثير منها تعرّض للتهشيم كلّيّاً أو جزئيّاً . ومع ذلك فإنّ قراءة ما تمكن قراءته منها ذو قيمةٍ تاريخيّة للمسجد نفسه وأحياناً لمُحيطه أيضاً ، وبذلك تستحقُّ أن تكون موضوعاً لبحثٍ مستقلّ . وسيكون بعضُها محل اهتمامنا في الآتي لِما له من علاقةٍ ببحثنا .

والظاهر أنّ هذه الهيئة للمسجد يرجع تاريخها إلى آخر تعديلٍ أُجري عليه في السنة ١١٢٨هـ/١٧١٥م . على يد المُتولّي للمقام آنذاك مرتضى بن علوان الحسيني . بدليل وجود رقيمٍ على جدار المسجد شمال المحراب جاء فيه : "**سلامٌ على نوح في العالمين ، إنّا كذلك نجزي المحسنين . أنشأ هذا البنيان السيّد الشريف مرتضى بن علوان الحسيني المُتولّي بشرط الواقف رحمه الله تعالى . سنة ثمانٍ وعشرين ومائة وألف** " .

وسنقف في الآتي على بعض ما يطرحه هذا النصّ من أسئلة ، خصوصاً ما أشار إليه الرّاقم من وقفيّةٍ وواقفٍ ومُتولّي .

ــ **القاعة** . وهي مُتميّزة بشكلها المستطيل ، موازية بضلعها الطويل لجسم المسجد ، بعرض سبعة أمتار . هندسة بنائها مختلفة عن

هندسة المسجد باعتمادها طريقة العَقْد . حيث ينحني الجداران الطوليّان ، إلى أن يلتقيا عَرْضيّاً في الوسط ، وبذلك يتشكّل السقف دون حاجة إلى أعمدة تحمله . بابُها الرئيسي في الجهة الشماليّة، مع بابٍ صغيرٍ يُفضي إلى داخل المسجد . جدارها الجنوبي مُغلق، كما يدلّ عليه ما بقي منه. وربما كان يحتوي على نافذة. لكن الإضاءة الأساسيّة للقاعة تأتي من فتحةٍ واسعةٍ في السقف .

(٢) ما في الأبنية من دلائل تاريخيّة

١ـ **في الضريح** . ما من ريبٍ في أنّه هو الأساس الذي كان وراء إنشاء كلّ أجزاء المقام الثلاثة : من بيت الضريح ، إلى المسجد ، إلى القاعة . أي أنّه لولا الضريح لَما كان من سببٍ يحفزُ ويدعو الناس لبنائها بالتوالي كما سنعرف.

الشكل غير المألوف للضريح ، الذي لانجدُ له شبيهاً إلا ضريح ابنه شيث في بلدة "النبي شيث" المُجاورة، ينطوي على دلالةٍ أكيدةٍ، هي أنّهما كلاهما بهندستهما الغريبة ثمرةُ ثقافةٍ واحدةٍ . تُعبّر على طريقتها ، ومن ضمن المهارات والإمكانيّات والمواد المتوفّرة لأصحابها، عمّا تُكنّه لدفينَي الضريحين من تقدير.

ثم أنّ الضرائح تحمل دائماً دلالةً ثقافية . وغالباً ماكانت ضرائح الممتازين من البشرفي كلّ الحضارات تحمل دلالةً ، ذات علاقةٍ

بما كان لهم إبّان حيواتهم من موقعٍ وأثر لدى الناس .

فهل من دلالةٍ خاصّةٍ ، بالنسبة للباحث ، لشكل الضريح المنسوب إلى نوحٍ عليه السلام ؟

من المؤكّد أن ليس في هندسة الضريح ما ينتمي إلى الإسلام وثقافته وتقاليده . لا في هندسته ، ولا في اتجاهه الشرقي ــ الغربي ، كيما يُقال أنّه من ابتداع مُسلمين ، بعد أن باتت المنطقةُ من دار الإسلام . وأيضاً ليس فيها ماينتمي إلى الثقافة الرومانيّة الوثنيّة ، فالمسيحيّة الشّرقيّة ، التي كانت سائدة في المنطقة إبّان القرون الستة أو أقلّ قبل الإسلام . ولا إلى الثقافة الآراميّة الطويلة السابقة على المسيح والمسيحيّة .

لذلك فإننا نُرجّحُ بقوّة أنها:(هندسةَ الضريح) تنتمي إلى الفترة التي عنوانها (الطوفان) ، لأنّها:(الفترة) قد أنتجت على المستوى الثقافي والحضاري في الفترة الغامضة التي قاد بدايتها شيث بن نوح . وانتشرت لفترةٍ في الشرق كلّه ، من "مصر" إلى بعض أجزاء ما هو اليوم "إيران". ممّا سنُفصّل الكلام عليه تفصيلاً فيما سيأتي .

في هذه النتيجة دليلٌ لمَن يجدها مُقنِعة على أن الضريح بناه بشرٌ ممّن عاشوا في الفترة السابقة على الآراميّة ، يعني فيما قبل ستة آلاف سنة على نحو التقريب . ليس عليه إلا أن يُضيف إليها : (إلى

النتيجة) أنّ بناءه بهذا الشكل دون غيره ، حيث يُكتفى بالاستفادة من مادة البناء بمدّها أُفُقيّاً بنحوٍ مؤهّلٍ للبقاء ويجلب الانتباه ، وينطوي على تعبيرٍ واضحٍ عن الخصوصيّة ، ــ ليس إلا لأن تقنيّات البناء وخبرات أبناء المنطقة في هذا النطاق ، في تلك الفترة المُبكرة جدّاً من تاريخ حضارة هذا الإنسان (أولاد آدم) في المنطقة ، لم تكُن قد بلغت مرحلة البناء المُمتدّ عموديّاً . الذي نجدُ أعلى نماذجه في عجائب قلعة "بعلبك" ، التي بُنيت بعدُ نحو ثلاثة آلاف سنة من عصر نوح عليه السلام .

وعليه فيُمكن القول، بقدرٍ جيّدٍ من الثقة ، أنّ ضريحي نوح وابنه شيث هما الأثران الوحيدان الباقيان اللذان نعرفهما من تلك الفترة المُعرقة في القِدَم . وفي ذلك دليلٌ إضافيٌّ رابعٍ على أصالة الضريح وعلى صحّة نسبته . وبعكسه سيكون على الباحث أن يفترض أن الضريح سيأخذُ شكلاً آخر من الأشكال التي سادت فيما بعد . وذلك خُلْف الواقع المَشهود .

٢ ــ **المسجد** . وهو لمَن ليس يعلم أوّلُ مسجدٍ للشيعة في المنطقة كلّها مايزال قائماً. طبعاً مع ضرورة التّذكيربما قلناه فيما فات على قرية "بحوشيّة" الدّارسة ، وما كان فيها من مسجدٍ أو أكثر. ما تزال بعض آثارها باقية .

هذه الأوّليّة ناشئةٌ من أنّ "كرك نوح" قد تشكّلت سُكّانيّاً أولاً من

أهل "بحوشيّة" ، الذين سارعوا إلى الهبوط إليها بعد أن بدأت منطقة الضريح تتحوّل إلى قريةٍ ناهضة . ثم انضاف إليهم المُتحوّلون إليها من أنحاء المنطقة، وعلى رأسهم الذين نجوا من مذبحة "كسروان" أوائل القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد ، فهبطوا هم أيضاً إلى "سهل البقاع" ، واستقبلت "كرك نوح" أعداداً كبيرةً منهم ، كما سبق القول فيما فات . وهؤلاء جميعاً كانوا من الشيعة .

هكذا بدأت شخصيّة البلد الثقافيّة تتشكّل ، بوصفها سُكّانيّاً شيعيّةً صافية . وفي هذا السّياق جرى بناء المسجد بجوار الضريح . وابتداءً من هذه المرحلة في تطوّر البلدة بدأت علاقةٌ طرديّةٌ تبادليّةٌ بينها وبين المقام الذي تعزّز الآن بإنشاء المسجد مُلاصقاً له : المقام أصبح من المعالم الدينيّة البارزة في المنطقة ، التي باتت تنمو باضطراد . ونمو البلد جعل منها المدينة الكبرى في "سهل البقاع" ، وأدّى إلى اتساع الحركة منها وإليها ، الأمر الذي أدّى بدوره إلى تعزيز المقام .

في هذا السياق من التطوّر العالق بوجهيه بدأ الاهتمام الرسمي بالمقام ، الذي سيأتي استجابةً مناسبةً للذّاكرة الشعبيّة الحيّة. التي ما انفكّت شديدة التعلّق بالضريح، بوصفه:(التعلّق) تفاعلاً مع حالةٍ ثقافيّة ــ حضاريّة ترتدُّ إلى أعماق التاريخ . ستكون وبطلها شيث بن نوح محل عنايتنا فيما سيأتي .

ما نودُّ التأكيد عليه هنا، هو أنّ الاهتمام الرّسمي بمثل هذه الرموز لايحصل إلا في ظلّ وضعٍ ثقافيّ مؤاتٍ، أو على الأقلّ مناسب. وهذا بدوره لا يمكن أن يكون إلا استمراراً لواقعة تاريخيّة ذات أثر. وظيفة المؤرّخ الانساني هنا هي أن ينظّم العلاقة بين العناصر الثلاثة ، فيُعيد تركيبها مثلما حصلت في الواقع . أي ، بنحوٍ معكوس، ابتداءًمن مُبادرة السُلطة السياسيّة، باتجاه الذّاكرة الشعبيّة ، إلى الواقعة التاريخيّة. ذلك النحو من تنظيم العلاقة امتيازٌ معقود اللواء للمؤرّخ الانساني حصراً . يسقط عنده المؤرّخ السُلطوي ضحيّةَ جشع السُلطة السياسيّة الخاضعة لعقليّتها النرجسيّة .

مع ذلك فإنّ نرجسيّة السُلطة ورغبتها المُلحّة في امتلاك التاريخ لاتخلو أحياناً من فائدة .

من ذلك ، النّصُّ الذي يؤرّخ لبداية أعمال السُلطة المركزيّة في "دمشق" ، التي كانت يوم ذاك تحت حكم المماليك الشركس في "مصر" ، بعمارة المسجد . من ضمن اهتمامها بعمارة ضريح نوح عليه السلام . نقرأ ذلك النص في رقيمٍ ما يزال حتى اليوم مقروءاً جزئيّاً ، رُقِمَ فوق المحراب بخطٍّ نسخيٍّ جميل ، جاء فيه :

"**أنشأ هذا المكان المبارك** [يعني المسجد] **مولانا المقرّ الكريم [....] السيفي الملكي الناصر كافل الممالك الشريفة الشاميّة أعزّ**

[....] سنة أحد [....] وسبعماية".

ومن أسف فإنّ الرقيم قد تعرّض لعمليّة تهشيم فظّة يبدو أنّها عمْديّة ، نالت إسم المُنشئ ورقمَي الآحاد والعشرات من تاريخ العمل عليه ، ولم يستبقِ منه إلا رقم المئات. فكأنّ الذي ارتكب هذه الجناية كان يرمي إلى تجهيل المُنشئ حتى بالاستناد إلى تاريخ العمل. الأمر الذي لايترك في أيدينا إلا احتمال أن يكون الفضل في أوّل عمارةٍ باقيةٍ للمسجد لأحد اثنين من الذين شغلوا منصب الكافل / نائب السلطان على القسم الأسيوي من المملكة المملوكيّة في هذا القرن . أحدهما سيف الدين أبو سعيد تنكز الحسامي ، الذي شغل المنصب مدةً طويلةً هي مابين السنتين ٧١٢ ــ ٧٤١هـ/ ١٣١٢ ــ ١٣٤٠ م. وثانيهما سيف الدين منجك الاشرفي ٧٦٩ ــ ٧٧٦هـ/ ١٣٦٨ــ ١٣٧٤م . بينهما فترةٌ طويلةٌ سادتها حربٌ أهليّة .

نُرجّح أن يكون الأوّلُ هو الذي شاد مسجد "كرك نوح" كما هو اليوم بهندسته الأساسيّة . وذلك نظراً لطول مدة حكمه ، ثم لاهتمامه بشؤون العمران في المنطقة . ومن آثاره الباقية حتى اليوم أنّه هو الذي جفّف ما كان يُسمّى "بُحيرة البقاع" ، التي كانت تُغطّى وسط السهل كلّه ، من قُبيل " كرك نوح " إلى بلدة "عنجر" /" عين الجُر" . وكانت قبلُ عبارة عن مستنقعاتٍ وأقصابٍ . يُستفاد من أقصابها في

عمل الحُصُر ومالإليها [١]. فاشتراها من بيت المال . وحفر بها أنهراً كثيرة ترمي إلى الليطة (يعني نهر الليطاني) حتى صفّى الماء من أراضيها ، وعُمّرت قرايا ما ينيف على عشرين قرية . وحصل للناس بذلك نفعٌ عظيم .

لكنّ الذي يحسم أمر الذي جدّد بناء المسجد على ماهو عليه اليوم تقريباً ، نجده في ذيل نصّ وقفيّة الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش التي سنفرغ لها في ملحقات الكتاب ، حيث ضمّ إلى الوثيقة الإشارةَ إلى وقفيّةٍ سابقة على المقام نفسه، كان قد أوقفها الأمير تنكز الحسامي ، كافل ولاية دمشق بوصفه الواقف ، ثم بدا له أن يستبدل بعض الموقوفات بغيرها ، فعقد هذه الوثيقة مع السيّد حسين بن موسى بن علوان بوصفه المُتكلّم على وقف حضرة النبي نوح . وبالنتيجة نالت التسوية الجديدة بعض الموقوفات باستبدالها بغيرها . كانت جزءاً من عقارات واسعة أوقفها على المقام ، لتُصرف ثمراتها على على عمارة أماكن المقام ، وعلى خُدّامه ومطبخه ، أثناء الأشهر رجب وشعبان

---

١ ـ انظر *تقويم البلدان* لأبو الفدا ط. باريس ١٨٤٠م / ٢٤٧ . حيث يقول : "وبحيرة البقاع هي مستنقعات وأهباش وأقصاب في جهة الغرب من بعلبك ، على مسيرة يوم منها . كان يُستفاد من أقصابها بعمل الحصر وغيرها ".

ورمضان . وذلك سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٢م .

بذلك يتحقّقُ لنا أنّ باني المسجد هذا البناء الباقي هو الأمير تنكز الحسامي، وأن البناء قد تمّ واستكمل قُبيل السنة ٧٣١هـ/١٣٣٢م.

ما من ريبٍ في أنّ أعمال الأمير تنكز التنمويّة الذّكيّة الجذريّة ، من استصلاح بقعةٍ واسعة من "سهل البقاع" ، وما ترتّب عليه من نشوء قُرى واستثمارات زراعيّة واسعة ، إلى عمارةِ مسجد " كرك نوح " ليكون أوّل مسجدٍ وأحفلها في السهل كلّه ، فضلاً عن تخصيصه بوقفيّات جيّدة برسم عمارته وخدمة الزّائرين . وكلُّ ذلك سنقفُ عليه في مُلحَقٍ بالكتاب ، ــ هذه الأعمال كان لها أحسن الأثر على المنطقة ، بحيث باتت "كرك نوح" بفضله وبفضل مقام النبي فيها بعد أن ضُمّ إليه المسجد الجديد ، حاضرةَ السهل الفسيح. والحقيقة أنّ المدينة الجديدة بنموّها السريع قدّمت أُنموذجاً لظاهرة نادرة ، وربما غير مسبوقة في منطقتها ، بالمقاييس التي نعرفها لإيقاع الحياة البطئ في ذلك الأوان . إذن فما من غروٍ في أن يُصبحَ المقام يعجّ بالزّائرين ، الذين باتوا يقصدونه من أنحاء المنطقة. وأن تصبح المدينة التي تحتويه ذات حيويّة فائقة .

كلُّ ذلك ، كما يُقال، إن الحظّ الحسن يجلب المزيد من مثله . فبدأت السُلطات المحلّيّة في السهل تتنافس في تعزيز المقام ، وأبرزها

وقفيّة الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش ، الأمير على غرب السهل . الذي أوقف على مقام النبي نوح وقفيّة هائلة ، تضمّنت طاحونيَن وعقارات واسعة في جوار "كرك نوح" وفي أنحاء مختلفة من السهل ، تمتد إلى "برّالياس" و "كفرعنّا" وصولاً حتى بلدة "عمّيق" شمال غرب السهل .

في ظلّ هذا الازدهار والنهضة الاجتماعيّة العالقة بدأت "كرك نوح" نهضةً موازيةً على الصعيد الفكري، بدايةً أتت موازيةً زمانيّاً لنهضة جارتها "جزّين". لكنّ هذه حظيت بزعيمٍ ذي رؤية من طراز الأبطال الكبار المُغيّرين ، هو محمد بن مكي الجزيني ، الأكثر شُهرةً بلقب الشهيد الأوّل (ق: ٧٨٣هـ /١٣٨٤م) . بيدَ أنّ أبناء "كرك نوح" مالبثوا ، بعد عددٍ من الرُّوّاد الأوائل منهم ، أن التحقوا بالنهضة التي انتجها الشهيد، يتقدّمهم ابنُها الحسن بن يوسف ابن العشرة الكسرواني الأصل (ت:٨٦٢هـ/١٤٥٧م). الذي نجح في أن يجعل من بلده لفترةٍ الحاضرةَ العلميّةَ الشيعيّة الأُولى في المنطقة . قبل أن يتحوّل علماءُ النهضة العامليّة إجمالاً إلى أرض المستقبل "إيران" . ذلك مابسطنا الكلام عليه في كتابنا *الهجرة العامليّة إلى إيران في العصر الصفوي* .

على الصعيد السياسي ، وفي ظلّ الازدهار والنهضة الاجتماعيّة الفكريّة نفسها في" كرك نوح " ، بدأ أبناءُ البيت الشيعيّ الحاكم في المنطقة ، أُمراء آل الحرفوش ، يتحّولون شيئاً فشيئاً إلـــى

سُكناها. ربما بقصد اتخاذها قاعدةً لحكمهم، بديلاًعن مدينة "بعلبك" الطرفيّة في أقصى شرق "سهل البقاع" . خلافاً لـ "كرك نوح" ، التي تتوسّط السهل ، وتمسك شبكة الطُرُق المُتشعّبة في أنحائه . أثناءها رمّم الأمير علي بن موسى الحرفوشي بيت الضريح سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م ، وأضاف إلى المقام مرافق صحيّة لخدمة الزائرين . وبالمناسبة نظم شاعرٌ يبدو أنّه محلّيّ اسمه عبد الكريم أبياتاً رُقمت على أحد أحجار البناء ، قال فيها

هـذه قُبّـــةٌ لها تقديسُ   كعروسٍ لها الجمال النفيـــسُ

بين نوحٍ وبين شيثٍ تراها   ذات نـورٍ يُضـئ منـه الحبيـسُ

وهي محفوفةٌ بجنّات وردٍ   وثمـــارٍ قطـوفهـا لا تخـيـــسُ

شـاد أركانـهـا الأميرُ عليٌّ   ولـه فــي خلائـهـا تأسيـــسُ

ولهـــا رونـقٌ بحضـرة أيلا   نزهـــة الواردين وهو الأنيسُ

إن تاريخهـا الأميـر ابن موسى

قـد بنـاهـــا فحـبّ نعـــم الجليسُ[١]

---

١ ــ عبد الغني النابلسي ورمضان بن موسى العطيفي:رحلتان إلى لبنان ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقيّة ، بيروت ١٩٧٩ / ٣٦ . و"الحبيس" مكان قُرب بلدة "الفُرزُل" المجاورة. و"أيلا" إشارةٌ إلى المقام المجاور المنسوب إلى "النبي أيلا" .

لكنّ الحقيقة أن ذلك الحراك السُكّاني من بعض آل الحرفوش قد فهمه الأمير القوي على "جبل لبنان" فخر الدين المعني حراكاً سياسيّاً ، يرمي إلى مُواطاة مركز حكمه . خصوصاً وأنّ الأمير يونس الحرفوش حاول إيجاد موطئ قدمٍ له في بلدة "مشغرة" الشيعيّة غرب السهل . حيث يمكنه عن هذا الطريق أن يبني اتصالاً مباشراً بين " سهل البقاع " و" جبل عامل " بما فيهما من كثافةٍ سُكّانيّةٍ شيعيّة، وأن يبنى علاقات سياسيّة خطيرة مع أُمرائه. فقمعهم فخر الدين بشدّة [١].

نظن أن البيت الحرفوشي، بخطوته المُتسرّعة تلك ، قد ارتكب خطأً سياسيّاً جسيماً لم يؤخذ فيه بالحسبان مغبّته ، وما قد يمكن أن ينشأ عنه من تداعيات ، خصوصاً في ظل ميزان القُوى بينهم وبين الأميرالمعني، الذي لم يكن بصالحهم بالتأكيد.

في ظلّ الوضع السياسي المُستجدّ باتت "كرك نوح" وسط حالةٍ صراعيّةٍ لا يدَ لها فيها . قلبت الوضع الذي ازدهرت فيه رأساً على عقب . وأخذ وضعُها، ومن ضمنه وضع المقام الذي تحتويه ، وكان بمثابة القلب منها ، في التقهقر السريع . انتهى إلى أن تنازل الأمير

١ـ حيدر الشهابي: الغُرر الحسان (معروف بتاريخ الأميرحيدر الشهابي) /حوادث ١٨٠٧م .

جهجاه بن مصطفى (حكم: ١٢٠٠ـ١٢٣٢ هـ/١٧٣٥ـ ١٨١٦م) أحد أُمراء بني الحرفوش ، عن (ملكيّة !) المدينة سنة ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧م للأمير بشير الشهابي . وفي السنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م نال الأمير بشير براءةً بتملُّك أرض المعلّقة المجاورة ، وكانت يومئذٍ أراضي زراعيّة ، فنقل أهل "الكرك" إليها . كما نقل بناءَ الشُّونة (السّراي الرسمي) إليها . فعمرت "المعلّقة" وخربت "الكرك" ، وباتت قريةً حقيرةً لاشأن لها . ممّا وصفه بتفصيلٍ أوفى عيسى اسكندر المعلوف في كتابه *تاريخ زحلة* / ١٤٠ وما بعدها . مع تحفّظنا على بعض ما قاله ،على نحو الاستطراد ، فيما يخص تاريخ " كرك نوح" تحديداً . وبهذه المناسبة أنشد شاعرهم ، مخاطباً الأمير بشير :

كما كرك البلاد بك استجارت فعزّت وازدهت بعد الإهانة

وقد جاءت براءتُها تنـــادي جهاراً أنّها لـك ما لكانة[١]

وعندما نمَت زحلة سُكّانياً بالهجرة الكاثوليكيّة الكثيفة إليها ، على ماقُلناه آنفاً ، تراجعت " كرك نوح " إلى مرتبة حيّ من أحياء المدينة الصاعدة ، سكانياً وسياسيّاً . كما جرى الاستيلاء على كثيرٍ من أملاك أهلها . بل ونُسخ اسمُها من القيود الرّسميّة . واليوم نجِدُ أن القيود

---

٢ ــ نفس ما سبقه .

العقاريّة الرّسميّة لأملاك أهليها هي تحت عنوان "معلقة بناء" و "معلّقة أراضي" . أي بالتجهيل التامّ لاسمها التاريخي العريق المجيد .

آخر الكوارث التي نزلت بـ "الكرك" هي ما ارتكبه بحقّها العثمانيون أثناء الحرب العالميّة الأُولى . فجنّدوا أبناءها كُرهاً ليرتحلوا إلى ميادين القتال البعيدة ، سيراً على الأقدام دون عودة . كما عمدوا إلى قطع أغراس بساتينها، لاستعمال أخشابها وقوداً للقطار العسكري ، المُسيّريين قاعدة "ريّاق" العسكريّة المجاورة وبين "حلب" . ومايزال أهلُها يتداولون بحسرة ذكر تلك البساتين الغنّاء ، التي كانت مصدر عيش أهلها مدة قرون .

أمّا أوقاف المقام الواسعة ، ممّا ذكرنا بعضها فيما فات ، فقد استُبيحت حتى من بعض أهل البلدة ، فجرى وضع اليد عليها شيئاً فشيئاً حيثما كانت . وإن تكُن صفتها الحقيقيّة محفوظة غالباً في القيود العقارية القديمة .

هكذا هبطت "كرك نوح" بالسرعة التي صعدت بها قبل قرنٍ ونيّف . بسطنا موجزاً من تاريخ ذلك بمسجدها بوصفه جزءاً من مقام النبي نوح (ع) ، وما فيه من دلالات تاريخيّة ، وما ساقت إليه تلك الدلالات من حديثٍ سُقناه على نبذةٍ سريعةٍ من تاريخها ، بوصفه ظهيراً لوضعها الحالي الهيّن ، بعد ما كانت عليه من مجدٍ وعزٍّ ورفاه .

٣ ــ القاعة . وقد وصفناها فيما فات . والذي نظنّه أنها آخر ما أُنشئ من أبنية المقام الثلاثة . كما أنّ الداعي لإنشائها مُلحقةً بالمسجد ، مع الاهتمام بوجود بابٍ مُوصلٍ بين الاثنين ، هو الحاجة إلى مكانٍ مُخصّصٍ للطلبة الذين جذبتهم المدينة في الفترة الطويلة نسبيّاً ، التي انبعثت أثناءها النهضة العلميّة فيها . وكانت تُقصد من أماكن قاصيةٍ ودانيةٍ في طلب العلم . فجدّت الحاجةُ إلى مكانٍ مُخصّصٍ لهم ، حيث يلتقون بأساتذتهم وزملائهم للدراسة والمُباحثة . مع أنّ القاعدة الأثيرة هنا أن المسجد هو المكان الطبيعي لذلك. لكن يبدو أنّ مساحته الصغيرة (حوالي ١٣٠ م^{٢}) ، أو أي سببٍ آخر، هو الذي دفع باتجاه إلحاق قاعة بالمسجد . وفي ذلك إمارة على أنّ عدد الطلاب لم يكُن بالقليل في الفترة التي ازدهرت فيها الدراسة في "كرك نوح" .

* * *

هذا ولقد سعيتُ قبل زهاء العشرين سنة إلى ترميم هذه القاعة، لِما لها من علاقةٍ صميمةٍ بتاريخنا الثقافي في "لبنان" . بعد رفع كميات الأتربة الهائلة المتراكمة على جسم البناء ، بحيث بات نصف دفين . فرفعنا كميات كبيرة منها من داخله ومن حوله . ثم بدأنا أعمال الترميم والصيانة والتجديد ، بالتعاون مع دائرة الآثار ووزارة الثقافة اللبنانيّة . ولم يحُل دون إتمام العمل إلا بروزُ مشكلات مؤسفة لم تكن في حُسباننا .

الفصل الرابع

نوح عليه السلام وطوفانه

(توطئة)

ذلك التأريخ البالغ الإيجاز لـ"كرك نوح" في صعودها وهبوطها، يسوقُ شهوةَ البحث لدينا إلى بسط الكلام على قصّة طوفانه . بوصفه الإنجاز الرئيس لدفين المقام النبي نوح عليه السلام . وبوصفه أيضاً ، بل أوّلاً ، المُنطلَق لتاريخٍ جديد للإنسانيّة محلّيّاً في تاريخها المُبكّر، كما سنعرف في الآتي . لولاه : (الطوفان) ، ولولا ما ترتّب عليه ، لَما كان من سببٍ لِما ننهمك به الآن في بحثنا هذا . بُغيتنا من وراء البحث تركيب قصّةٍ لواقعة الطوفان ، تحرّره من عالَم الأساطير ، نراها أقرب إلى الحقيقة .

وبما أنّ قصة الطوفان قد دخلت التراثَ والعقلَ الإسلاميّ من مداخل شتى ، تختلفُ فيما بينها اختلافاً بيّناً ، بحيث ينفي بعضُها بعضاً. فإنّ علينا أن نُحيط بها علماً في مداخلها الثلاثة : التوراة ، ما سنُسمّيه (الأدبيّات الإسلاميّة) ، القرآن العزيز ، تأثّر بها جميعها جمهورُنا المسلم بدرجاتٍ مختلفةٍ. ومن ثَمّ إخضاعها لعملنا النقدي ، ابتغاء الوصول إلى أحراها منّا بالقبول .

(١) في التوراة

التوراة لاتتحدث عن نوحٍ بوصفه نبيّاً مبعوثاً برسالة ربّانيّة ، بل باعتباره بطلاً شعبياً بشريّ الصفات بحسنِها وسيّئِها. ومع ذلك فإنّه أدّى بكفاءة مهمّةً ربّانيّةً بين البشر قاطبة برعايةٍ ربّانيّةٍ كاملة . انتهت المُهمّةُ ، حسب التوراة ، إلى تدمير العالم قاطبة ، بكل ماعليه من بشر ومن مخلوقات برّيّة ، باستثناء الذين اختارهم هو ليكونوا معه في سفينةٍ كبيرةٍ جداً ، بحيث اتسعت لهم جميعاً . كلّ ذلك جرى بأمرٍ وتدبيرٍ مُباشرٍ من الله تعالى . ومع ذلك ، حسب كاتب التوراة ، فإنّ "الرّبّ" سرعان ما ندم على ماأنزله بخلقه ، وعقد ميثاقاً مع نوح أنه لن يتكرّر في المستقبل أبدا .

إنّ الصورة التوراتيّة للطوفان هي صورةٌ عجائبيّة / غرائبيّة ، لا يمكن أن تكون إلا أُسطوريّة : الطوفان غطّى العالم كلّه ، فكأنّ ثلاثة أرباع الأرض المغمور بالماء قد طما وغطّى على الربع اليابس . والسفينة خارقة الحجم ، بحيث اتسعت لزوجين اثنين ، ذكرٍ وأُنثى ، من كل حيوانات الأرض البرّيّة قاطبة ، كبيرها وصغيرها. وأنّ نوحاً استطاع بطريقةٍ ما ، عجائبيّة ولا ريب ، أن يستدعي ويجلب إلى سفينته الهائلة زوجين اثنين من كلّ حيوانٍ برّيّ موجود على ظهر الأرض ، على اختلاف أنواع الحيوان بين بقاع الأرض المُتباعدة ، بما فيها من

اختلاف مناخي وبيولوجي . وبهذه الوسيلة أنقذ الأنواع . في حين فني كلُّ البشر والبهائم الذين لم يركبوا معه في سفينتة .

بالنتيجة كلّ البشر هم من أحد الذكور الذين كانوا مع نوح في السفينة من ابنته . أمّا البهائم فهي من الزّوجين من كلّ نوعٍ من الأنواع التي كانت معه أيضاً .

والذي نظنه أنّ هذه الصورة ، التي وصفناها بالعجائبيّة ، لها أساسٌ تاريخيٌّ حقيقيّ . وما هي فيما نُرجّح إلا صورةٌ مُركّبةٌ من عددٍ كبيرٍ من قصص الطوفانات التي حدثت في أنحاء الدنيا . فالطوفانات بمختلف أحجامها وأسبابها هي من الكوارث الطبيعيّة التي لايكاد ينجو منها بلدٌ من البلدان في تاريخه القريب أو البعيد .

(٢) في القرآن

نوح أوّلُ رسولٍ أرسله الله إلى الناس في منطقة الرسالات الكُبرى . (إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) (النساء/ ١٦٣) . وهو أوّل الأنبياء من رُتبة أُولي العزم ، أي الذين بعثهم الله تعالى بشريعةٍ جديدةٍ ، تؤسّسُ و تُكملُ الرسالةَ التي قبلها. مع أمره إياهم بأن يُبلّغوها حيثما يصِلُ صوتهم . لرسالة نوح عليه السلام صفة تأسيسيّة بالقياس إلى كلّ الرسالات التالية (شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً) (الشورى/٤٢) . بُعث إلى قومه الذين كانوا من عبدة

الأصنام وَدّ وسُواع ويَغوث ويعوق ونسر(نوح/٣٤٩) . فلبث بين ظهرانيهم تسعمائة وخمسين سنة(ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً) (العنكبوت / ١٤) (سنين غير سنيّ تقويمنا ولا ريب ، وسنبيّن ذلك إن شاء الله) . لم يتبعه أثناءها إلا قلّةٌ قليلةٌ من فقراء قومه (وما آمن معه إلا قليل) (هود/١١). (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) (هود/٤٤). فدعا على قومه (ربِّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا . إنّك إن تذرهم يُضلّوا عبادك ولايلدوا إلا فاجراً كفّارا) (نوح/ ٢٦،٢٧) . فاستجاب الله تعالى دعاءه بأن أمـره بأن يصنع سفينة بنيّة إغراق الكافرين وضمان نجاة المؤمنين (واصنـع الفلك بأعيننا ووحينا. ولاتخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغرَقون) (هود/٣٦،٣٧). فجاءت السفينة التي بناها بنفسه من ألواحٍ ودُسُر (وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر) (القمر/٥٤) . فلما أتمّها أمره أن يركب فيها ومَن معه من قومه وذوي قُرباه المؤمنين . وأن يحمل على السفينة معه زوجيَن من كل صنفٍ من الحيوان (فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين)(المؤمنون/٢٣). فتفجّرت الأرضُ بماء مُنهمر أغرق كلَّ الكافرين كما كان مُقدّراً لهم (وفتحنا أبواب السماء بماءٍ مُنهمر وفجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر) (القمر/١١ ، ١٢) . وسارت السفينة حتى استقرّت في نهايـة

الطوفان على جبل اسمه الجودي (وغيض الماءُ وقُضي الأمر واستوت على الجودي) (هود/١١) جبلٌ في المنطقة التي كان يسكنها نوح عليه السلام وقومه ، بعد أن هلك عامّة أهلها إلا الذين كانوا معه في السفينة .

(٣)في الأدبيّات الإسلاميّة

سنعتمد مصدراً لتركيب صورة طوفان نوح عليه السلام فيما سميناه "الأدبيات الإسلاميّة" كتابين،هما *النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين* للسيد نعمة الله الجزائري ، المطبوع باسم *قصص الأنبياء والمرسلين* . وكتاب أستاذه محمد باقر المجلسي المطبوع بالاسم نفسه . وهو في الأصل الجزء الخامس من كتابه الشهير *بحار الأنوار*، جعله لأحوال الأنبياء عليهم السلام باسم (*كتاب النبوّة*). ومن المعلوم للعارف ، أنّ كلا المؤلفيَن من كبار المُحدّثين ، ذوي الخبرة الواسعة العميقة بموضوعاته وبمصادرها . ومن هنا أتى الكتابان متشابهين في مادتهما. مع ميلٍ واضحٍ لدى التلميذ إلى الاختصار، بالقياس إلى عمل أستاذه .

والذي يؤخذ من الكتابين إجمالاً ، أن الله سبحانه بعث نوحاً في قومٍ من الذين كانوا يعبدون الاصنام ، وله من العمر أربعمائة سنة. فكان يدعوهم فيضربونه . فدعا عليهم فأعقمهم الله أربعين سنة لا يولدُ

لهم ولد ، ولا ينبت لهم زرع . ومع ذلك أصرّوا على البقاء على ضلالهم . فأمره الله أن يغرس النخل. فكان قومه يسخرون منه . فلما بلغ النخل طُولاً، أمره بأن يبني سفينة من أخشابها ففعل . وأتت السفينة بطول ألفٍ ومائتي ذراع ، بعرض ثمانمائة ، بعلو ثمانين . وكان عمله على السفينة في مسجد الكوفة (مع أن مساحة مسقط السفينة أكبر من المسجد !) . فلمّا أتمّها أمره الله تعالى أن ينادي الحيوانات بالسريانيّة (لماذا بالسريانيّة ؟!) ، فلم يبقَ من بهيمة ولا حيوان إلا حضر . فاختار من كلّ جنسٍ اثنين اثنين ، ذكراً وأنثى ، أدخلهم السفينة . كما أدخل الذين آمنوا به من جميع الدنيا، وعدّتهم ثمانون رجلاً .

فلمّا أتمّ عمله برسم كلّ الذين معه في السفينة، بأن هيّأ لهم كلَّ ماسيحتاجون إليه أثناء الطوفان الآتي، كلٌّ بما يناسبه ، من غذاءٍ وخلافه ، انكسفت الشمس ، ونزل من السماء ماءٌ منهمرٌ بلا قطر، وتفجّرت الأرض عيونا . فدارت السفينة وضربتها الأمواج ، حتى دخلت "مكة" وطافت بالبيت العتيق. وغرقت جميع الدنيا إلا موضع البيت . وبقي الماء ينصبُّ من السماء أربعين صباحا ، ومن الأرض تتفجّر العيون بالماء الغزير ، حتى ارتفعت السفينة فمسّت السماء .

عندها ، أي بعد أن اطمأنّ نوح عليه السلام إلى أن جميع مَن على الأرض من البشر قد ماتوا غرقاً، رفع يديه ودعا الله . فاستجاب

دعاءه بأن أمر الأرض بأن تبلع ماءها. وأراد ماء السماء أن يدخل في باطن الأرض ، فامتنعت من قبوله ، وقالت إنما أمرني الله أن أبلعَ مائي ، ولم يأمرني بأن أبلعَ أيضاً ماء السماء . فبقي ماء السماء على وجه الأرض ، إلى أن حلّ جبريل النزاع من عنده وبقوّته ، بأن ساق الماء إلى موضع البحار حول الدنيا ، أي بما لا يُكلّف الأرض بأن تبلعَ ماءها . وبهذه الوسيلة نشأت كلُّ البحار. بعد أن كانت الأرضُ من قبلُ كلّها يابسة .

بنهاية الطوفان استوت السفينة على جبلٍ اسمه "الجودي" . فنزل نوح والذين معه منها . وكان معه بنتٌ له ، منها تناسل كل البشر بجميع أجناسهم وألوانهم. ومن هنا قيل إنّ نوحاً هو الأب الثاني للبشر بهذا المعنى من بعد آدم عليه السلام ، لأنهم جميعاً من ابنته.

(٤) مراجعة نقديّةٌ لِما في المصادر الثلاثة

تختلف التوراة مع القرآن والأدبيّات الإسلاميّة في ما هو من شأن نوح عليه السلام.

فهو عند هذين أوّلُ نبيٍّ من أُولي العزم الخمسة. أمّا في التوراة فهو مُجرّد بطلٍ أو زعيمٍ شعبيّ محلّي،مسموع الكلمة عند الله وعند الناس أو بعضهم .لأنّ مامن نبوّة عند التوراتيين في غير اليهود الإسحاقيين ، أي الذين هم من نسل إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

بالنسبة لوقائع الطوفان ، فإنّ كلا التوراة والأدبيات الإسلاميّة تتفقان على أن الطوفان غطّى الأرض كلها ، وأنه قضى على كلّ ماكان عليها من بشر وحيوان برّيّ ، إلا الذين كانوا مع نوح في السفينة من بشرٍ وحيوان . لكنّ ما يؤخذ من القرآن في هذا الشأن مختلفٌ كثيراً .

تتفق التوراة والأدبيّات الإسلاميّة على أن طوفان نوح عليه السلام قد غطى الأرض كلّها حتى جبالها العالية . ويختلف القرآن العزيز معهما في هذا اختلافاً بيّناً .

تتفق التوراة والأدبيّات الإسلاميّة على أن سفينة نوح حوت زوجيَن اثنين من كل حيوانات الأرض البرّيّة . القرآن العزيز لا ينصُّ على ذلك . بل الذي يُفهم من سياق الكلام غيره تماماً .

يتفقان أيضاً على أنّ السفينة التي صنعها نوح كانت خارقة الحجم ، بحيث اتسعت لزوجين اثنين من كل حيوانات الأرض البرّيّة قاطبة كبيرها وصغيرها . بل إن بعض الأدبيات الإسلاميّة تحدد مساحتها بتسع مائةٍ وستين ألف ذراع مربع . وهذا يعني أن مساحة مسقطها العمودي يفوق مساحة أي سفينةٍ صنعها البشر حتى الآن . أمّا القرآن فإنه يقول كلاماً يُفهم منه أن (السفينة) كانت من وصفٍ وحجمٍ عاديّيَن جدّاً .

يتفق القرآن والأدبيّات على أنّ نوحاً عاش عمراً طويلاً جداً ، بلغت بـه بعضُ الأدبيات ألفين وخمسمائة سنة . والقرآن يذكر أنّه لبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة . وهو رقمٌ يتناسب عدديّاً مع العمر الذي ذكرته تلك الأدبيات . ولذلك تفسيره طبعاً ، سنقِفُ عليه في الآتي إن شاء الله .

هذه المراجعة النقديّة الشاملة لشخصيّة نوح وعمله وطوفانه في مختلف المصادر الرئيسة الثلاثة تُظهر لنا أنّ الأدبيّات الإسلاميّة أقرب كثيراً إلى التوراة منها إلى القرآن . بل إنّنا ، بالإضافة إلى ذلك ، قد لاحظنا أنّ كُتُب التفسير إجمالاً، وهي التي يُفترض فيها أنّها تعملُ على النّصّ القرآني ، تُنافس الأدبيّات، التي عمادها المرويّات ، في نزوعها المكشوف إلى استعادة المشهديّات التوراتيّة . دون بذل جهدٍ حقيقي في تدبّر النصوص القرآنية تدبُّراً مباشرا. مع أن النصوص ذات العلاقة موزّعةٌ في غير سورةٍ من سِوَره ، بنحوٍ يجب أن يكون دليلاً صريحاً على اهتمام القرآن البالغ بدور نوح التأسيسي في تاريخ الإيمان. الأمر الذي يُملي عليها أن تمنح النصّ القرآني المحلّ الذي يستحقّه في ذهن ووُجدان الإنسان المُسلم .

المُلاحظة تطرح سؤالاً كبيراً عن سبب ذلك النزوع الشامل تقريباً ، إلى حدّ سيطرته على النّصّ الإسلامي ، وبالتالي على عقل

الإنسان المسلم .

فهل الطابع الأُسطوري للقصّة التوراتيّة هو الذي منحها تلك القدرة على اختراق الموازين العقليّة النقديّة ، ومن ثَمّ وهبها ذلك الانتشار؟

من المعلوم أنّ الأُسطورة، بوصفها فنتازيا مُركّبةٌ من خارج ما هو مألوف عند البشر ، تتمتّع بجاذبيّة خاصة عند الناس ، بحيث تخترق النظام الفكري ، الذي يتخذه البشر آلةً للتمييز بين ما هو خطأ وما هو صواب ، ما هو مقبول وماهو غير مقبول . وذلك هو سرّ الانتشار العجيب الذي تُصيبه قصصُ الخيال في الآداب العالميّة ، ما كان منها خيالاً علميّاً، وما كان منها خيالاً مُجرّدا .

ومن ضروب الخيال المُغرق في فانتازيّته وخروجه عن المألوف ، مثلاً ، في الصورة الأدب ــ إسلاميّة لطوفان نوح عليه السلام ، أن الأرض تُخاطبُ (بأيّ لغة !) المياه التي هطلت من السماء مُعلنةً الامتناع عن بلعها بعد انقضاء الطوفان، لأنّها مُكلّفةٌ من خالقها بأن تستعيد مانبع منها فقط دون ماهطل من السماء. فيأتي جبريل ويحلّ الخلاف بينهما حلّاً وسطاً يُرضي الطرفيَن . وذلك بأن ساق كل المياه بنفسه إلى البحار. وكأن مامن قوانين أودعها الله سبحانه في هذا العالَم ، هو الذي يُنظّم العلاقات بين مختلف القُوى . وأنّ الأُمور الكبيرة

قد تكون بحاجةٍ أحياناً إلى تدخُّل الملائكة مباشرةً لتنظيم بعض العلاقات فيما بينها .

فهل هذه الصفة الفنتازيّة هي التي منحت الصورة التوراتيّة تلك القدرة على الانتشار، حتى خارج منطقة سيطرة التوراة ؟

ذلك مانرجحه . شرط أن لانفهم من ذلك أن التوراة هي التي صنعت القصّة المُضخّمة ودبّجتها . بل إنّ واضعها هو الجمهور أيّاً كان . الذي تأثّر بنتائج الطوفان الكبيرة كما سنعرفها في الآتي . فأطلق خياله في تعظيمه ، بحيث أتى بتلك الصورة العجائبيّة. ودور التوراة في تلك الآليّة إنما يقتصر، فيما يبدو ، على تسجيلها ونشرها ، فعكستها تعبيراً عن تأثّرها بها. لكنّها انتزعت من نوح صفة النبوّة لأنّه من خارج البيئة النخبويّة الإسحاقيّة ، التي أنتجت النبوّات اليهوديّة .

سنعمل في الآتي على تقديم الرواية القرآنيّة النقيّة لواقعة الطوفان ولبطلها . وبيان ما فيها من مغازي ودلالات .

(٥)الرواية القرآنيّة لواقعة الطوفان

قضيّة العمر الطويل جدّاً لنوح عليه السلام كانت ومازال مسألةً إشكاليّةً بامتياز، يفتّنُّ الباحثون المُحدَثون في القرآنيّات في تقريبها إلى أذهان المؤمنين بوسيلةٍ أو بغيرها . لكنّ الكلّ متفقون على أنّ ما يقوله القرآن في هذا ، ليس يعني ماهو ظاهر الكلام .

ولقد صادف أن شاهدتُ قبل بضع أيّام متحدّثاً من على شاشة إحدى الفضائيّات العربيّة حلُّ المسألة بالقول، إنّ المقصود بـ " السنة " في الآية ليس إلا اليوم . وهو حلٌّ أو توجيهٌ قد يبدو مقبولاً ، إن نحن قصرنا النظرَ على نص الآية التي تقول أن نوحاً لبث في قومه ٩٥٠ سنة ، يعني ٩٥٠ يوماً حسب هذه النظرية ، أي زهاء ثلاث سنوات من سنيّنا. ولكنّه قاصرٌ عن تفسير ما أشاعته الأدبيّات أنّه عاش ٢٥٠٠ سنة. وإلا سيكون علينا أن نتقبّل ، بناءً على نظريّة صاحبنا ، أنّ نوحاً عاش زهاء سبع سنوات فقط (!) .

من المعلوم أن السنة كما نفهمها اليوم ، أي مدة دورةٍ للأرض حول الشمس ، وهي عماد التقويم الشمسي المعمول به عالميّاً ، هي من ابتكارات الكلدانيين العراقيين حوالي القرن الثالث قبل الميلاد . إليهم يعود الفضل في تزويدنا بالتقويم المعمول به في العالَم ، بقسمة السنة إلى اثني عشر شهراً ، والشهر إلى أربعة أسابيع ، والأسابيع إلى أيام . . . . الخ.

وممّا لاريب فيه أن فترة حياة نوح عليه السلام سابقةٌ بقرونٍ طويلةٍ على الكلدانيين . بل إن العراق الأدنى ، ومنه عاصمتهم "بابل" ، لم يكُن قد وُجد أصلاً كما سنُبيّن بعد قليل . أي أنّ مفهوم " سنة " كما نتداوله اليوم لم يكن قد نشأ بعدُ في الثقافة البشريّة.

هذا التحقيب يُبدّل اتجاه القضيّة وينتزعها من فم الأُسطورة ليضعها في فم اللغة . ذلك لأنّ مفهوم "سنة" ، فيما يخصّ قصة نوح في القرآن ، ينتمي إلى تقويمٍ آخر، بادَ بعد أن سيطر التقويمُ الكلداني بجدارة ، ونسخ كلّ التقاويم السابقة . لكنّنا لانعرف عناصره لكي نُقدّر ماتعنيه زمانيّاً بالقياس إلى تقويمنا ذي الأصل الكلداني . لذلك فإنّنا نتقبّله نصّاً ، مع التّحفُّظ عليه معنىً ، بالقول فقط أنّه لا يعني ظاهره . أي أنّ المعنى الحقيقي لكلمة "سنة" في هذا السياق علمه عند الله . وأمّا نحن فإنّنا لانملك المادّة التأريخيّة التي تؤهلنا للقطع بشأنه. وهذا النمط من التعبير جزءٌ مُتمثّلٌ في أنماط اللغة القرآنيّة ، تختص بما ليس ممّا هو من الخبرات البشريّة . وأبرزه أخبار عالَم الغيب واليوم الآخِر وبعض القصص وعناصرها .

بالنسبة لقضيّة الطوفان نفسه . فإنّ من المؤكّد أنّه لم يكن حدثاً عالميّاً أغرق الدنيا وقضى على كلّ ما عليها من بشرٍ وحيواناتٍ برّيّة ، كما تصوّره التوراة والأدبيّات الإسلاميّة .

الصورة التي يخرج بها المرء من تدبُّر الآيات القرآنيّة ذات العلاقة ، أنّ الطوفان كان عبارةً عن سيلٍ قوي ، نشأ بفعل أمطارٍ غزيرةٍ جدّاً، تتابعت مدّة طويلة ، ماأدّى إلى امتلاء خازنات الينابيع ومن ثَمّ انفجارها بغزارة . ومن الاثنين نشأ سيلٌ قوي ، اجتاح منطقة

قوم نوح فدمّرها تدميراً، وأتى على سكانها الذين لم يلتحقوا بالسفينة . وأن ميدانه إنّما كان البقعة من الأرض التي كان يقطنها نوح وقومه فقط . في تلك الفترة المُبكّرة من تاريخ الإنسان ، يوم كانت التجمّعات السُكانيّة تتكوّنُ من عائلات تجمعهم رابطة النسب القريب .

إذن فعندما يقول الكتاب العزيز(ولقد أرسلنا نوحاً إلى **قومه** فقال ياقوم اعبدوا الله) (المؤمنون/٢٣) . (ولقد أرسلنا نوحاً إلى **قومه** فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) (العنكبوت/٢٩) . (إنّا أرسلنا نوحاً إلى **قومه** أن انذر **قومك)** (نوح/٧١)، كان يعني ذلك المعنى من " القوم " ، أي الذين تجمعهم رابطة النّسب القريب ، في ذلك الزمان المُبكّر من تاريخ البشريّة . قبل نشوء التجمّعات المدينية الكبيرة .

أمّا السفينة فقد بناها نوحٌ وحده وبيديه . ولم يذكرها القرآن بصفتها (سفينة) إلا مرةً واحدة (فأنجيناه وأصحاب **السفينة** وجعلناها آيةً للعالمين) (العنكبوت/١٥). في مُقابل مرّاتٍ كثيرةٍ جدّاً بوصفها (فُلك) . بيّن حقيقتَه بقوله : (وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر) (القمر/١٣)، وبقوله (ولقد تركناها آية) (القمر/١٥) . ومنه نفهم أنّ السفينة كانت عبارة عن طوف أو رمث متكوّن من " ألواحٍ ودُسُر" ، أي أنّها مصنوعة من الأخشاب المُتوفّرة في المحيط : دُسُرٌ طوليّةٌ تُمسكها ألواح خشبٍ عرْضيّة . الأمر الذي كان موضع استغراب وهُزْء قومه

(ويصنع الفلك وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه) (هود/١١) لأنهم لم يروا من قبل مثل هذا الجسم الكبير الذي كان نوح مُنكبّاً عليه، ولم يُخمّنوا الغرض من العمل بدأب على الجسم الخشب غير المألوف لديهم . فمن هنا ، فيما يبدو لنا ، وصفها القرآن العزيز مرتين بكلمة " آية " ، يعنى دليلاً ومؤشّراً إلى الأمر الجلَل القادم ، الذي لم يكُن قوم نوحٍ يعرفونه .

ثم إنّ مجموع مَن حملته من البشر هم الذين آمنوا برسالته من أهله وذُريّته والذين آمنوا من قومه (قُلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين **وأهلكَ** إلا مَن سبق عليه القول ومَن آمن . وما آمن معه إلا قليل) (هود/٤٠) . (ونجّيناه **وأهله** من الكرب العظيم . وجعلنا **ذريته** هم الباقين) (الصافات /٧٧، ٧٨) . وكم يمكن أن يكون عديد أهل وذريّة شخصٍ ما يزال على قيد الحياة في ذلك الأوان ؟

أمّا الحيوانات المحمولة في السفينة فما كانت إلا من الأنعام المحلّيّة التي كان الانسان قد استأنسها لخدمته في ذلك الأوان . أشار القرآن إليها بقوله تعالى : (أُسلُك فيها من كل زوجين اثنين) (المؤمنون /٢٨ . ونصٌّ مشابهٌ في هود / ٤١) . مايدلّ ضمناًعلى أنّ (السفينة) كانت من الصغر بحيث لا تتسع لكل مواشي أهله وذريّته . فاقتصر الأمرُ على الحدّ الأدنى الضروري من الأنعام التي لديهم ذكوراً

وإناثاً ، ما يسمح للمؤمنين بأن يستولدوها ويبدأوا بذلك تدبير أُمور وأدوات معاشهم من جديد.

هكذا نخلص من هذه المراجعة لقصة طوفان نوح عليه السلام كما وردت في القرآن العزيز إلى أنّها قصّةٌ عاديّةٌ جدّاً ، ليس فيها ماهو غير عاديّ إلا علْم نوح المُسبق بالطوفان القادم ، وماترتّب عليه من أمره بإعداد (السفينة) لتكون وسيلة نجاة أهله وذريّته (ونجّيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته من الباقين) (الصافات/ ٧٧ـ٧٨) . وفيما خلا ذلك فكلُّ شيءٍ فيها ممّا يمكن أن يقع لأي قوم وفي أي مكان في ظروفٍ مشابهة . فنوح كان يعيش بين قومٍ يعرفهم ويعرفونه، يتكلّمون جميعاً لغةً واحدة . بنى بنفسه وبيديه طوفاً كبيراً ، الأمر الذي كان مُثيراً للعجب والسخرية به من قومه (تصوّر إنساناً ينهمك ببناء طَوْف ، بين قومٍ لم يروا مثله من قبل ، يعيشون في منطقةٍ برّيّة ، أقرب المياه إليها شاطئ البحر البعيد عنهم عشرات الأميال ، تفصلُ ما بينهما جبالٌ عالية) . ثم هطلت أمطارٌ غزيرة تتابعت لمُدّة طويلة، بحيث فجّرت الينابيع،وتوالي الأمرين:(هُطول المطر الغزير وتفجّر الينابيع) ، أدّى إلى حصول سيلٍ قويّ أغرق المنطقة التي يسكنها قوم نوح . أمّا هو والذين آمنوا معه من ذوي قُرباه ("أهله" و"ذريته" "ومن آمن" حسب عبارة القرآن) ، فقد كانوا قد أعدّوا للأمر عُدّته. بأنْ

اعتلوا مع بعض مواشيهم الطوف . في حين مات غيرهم غرقاً . إلى أن رست بهم السفينة على سفح جبلٍ قريب.

تلك هي قصّة طوفان نوحعليه السلام في القرآن جملةً وتفصيلاً. القسم العملاني من القصّة ، يعني ما عدا علم نوح المُسبَق بالطوفان ، واقعيٌّ جداً بأحداثه وبتسلسلها وبمآلها . شتان بينها وبين الرواية التي نبتت فيما بعد ، ومنحت الحدثَ عناصر أُسطوريّة فوق عاديّة ، عكستها التوراة والأدبيّات الإسلاميّة . لا يسعنا نحن اليوم إلا أن نقرأها بوصفها أُسطورةً من أساطير الأوّلين ، شأن غيرها من الأساطير التي لاتخلو منها الذّاكرة الجمْعيّة لمختلف الثقافات المُنحدرة من الماضي، وليس أكثر .

هذا التحليل يطرح سؤالاً :

ما دام أمر الطوفان على هذا القدْر من البساطة ، فلماذا منحه القرآن العزيز تلك الأهميّة ، بأن أكّد عليه بالذّكر مراراً وتكراراً . وبحيث أنّ حجم المادة على نوح عليه السلام وطوفانه منتشرة فيه انتشاراً فائقاً نادر المثال ، بالقياس إلى غيره من أخبار الأوّلين ؟

نقول في الجواب : الله أعلم وأحكم لمَن ألقى السّمعَ وهو شهيد.

لكن لا بدّ لنا من أن نأخذ بعين الاعتبار ، ونحن نتأمّل في هذه الإشكاليّة ، أنّنا أمام سيرة أوّل الأنبياء من أُولي العزم الخمسة .

وأمام رواية أوّل عقوبةٍ جماعيّة تقع بإرادةٍ أو بأمرٍ إلهي على مجموعةٍ من هذا الطّور من البشر(أولاد آدم) ، سيكون لها أمثالٌ في أقوامٍ آتين . فضلاً عن أنّه قد ترتّبت عليها نتائج حضاريّة كبيرة، سنقفُ عليها فيما سيأتي إن شاء الله . أي أننا في هذا أمام جزءٍ أساسيٍّ ، ممّا يمكن أن نُسمّيه الانثربولوجيا (الأنسنة / تاريخ الإنسان) القرآنيّة ، في مُقابل غيرها من الانثروبولوجيا التوراتيّة ، وفي مُقابل غيرها من صنوف الانثروبولوجيّات الحديثة .

وسنزيدُ هذه الملاحظة بياناً في الفصل الآتي إن شاء الله .

ومع ذلك ، ويا للعجب ، فإن غير مفسّرٍ للقرآن ، أفدحهم الطبري في تفسيره ، عكس بقوّةٍ الصورة التوراتيّة للطوفان ، وإن بغطاءٍ إسلاموي ، عنوانه ومادته من الأحاديث المرويّة ، على الرغم من مُخالفتها الصريحة لظاهر القرآن. الأمر الذي أدّى إلى ترسيخها في الأذهان والكُتُب . على حساب تجهيل المادة القرآنيّة ، على الـرّغم من وجاهتها وواقعيّتها الفذّة .

والحقيقةُ أنني ، بعد البحث والاستقراء ، لم أجِد أحداً من قبلنا قد قرأ المادة القرآنيّة على الطوفان قراءةً مُستوعبةً ، مُتحرّرةً من الأفكار المُسبقَة ، واستنبط دلائلها ومغازيها . ولا يُحمَدُ إلا الله سبحانه .

الفصل الخامس

أين حصل الطوفان وكيف؟

(١) أين عاش نوح (عليه السلام)

ما من نصٍّ أو تلميحٍ في القرآن العزيز لاسم المنطقة التي عاش فيها نوح وحدث فيها الطوفان . نعم ، ثمة قاعدةٌ مُقرّرة قرآنيّاً تقول أن كلّ رسول إنّما هو مُرسَلٌ إلى قومه وبلسانهم (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى قومهم) (الروم/٣٠) . (وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه) (إبراهيم/١٤) . يعني بذلك طبعاً أوّلَ الرسالة والإنذار. وإلا فإنّ من الثابت أن رسالة أُولي العزم من الأنبياء، أي الذين يأتون بشريعةٍ جديدة، هي عامّة برسم كلّ البشر الذين يصِلُ صوتها إليهم إبّان حياتهم ومن بعدهم حتى النبوة التالية . فمن هذا الطريق يُمكن أن نعرفَ المنطقة التي عاش وأنذر فيها النبي،أي من معرفة المنطقة التي كان يقطنها والقومَ الذين خاطبهم مباشرةً برسالته.

لكنّ المشكلة بالنسبة لقوم نوح أنّهم ينتمون إلى الفترة المُبكّرة جدّاً من تاريخ هذا الطور من البشر(أبناء آدم) ، الذين يبدو من لحن القرآن أنهم أوّل مخلوق بشري ملكَ اللغة . وانتشارهم الآتي إنّما حصل في المنطقة الواسعة الممتدة شرق وجنوب البحر المتوسط ، أي ماهو اليوم (الشام) و (العراق) و (شبه الجزيرة العربيّة) و (مصر) ، حيث

ستنبت من بعده الحضارات الانسانيّة الأُولى .

لكنّها في زمان نوح عليه السلام وقومه لم تكُن المجتمعات التي وُلدت وتكاثرت بعد الطوفان قد تشكّلت بعد ، مُتخذة صفة مجتمعات سياسيّة ، يشدُّ عُراها ، بالإضافة إلى اللغة ، رابطة المكان/الوطن، بوصفه الوعاء الذي يُقدّم الأمن والغذاء، كما ستكون بعد زمان . بل يبدو أنّها كانت تجمّعات أُسريّة ، تنتمي إلى ماقبل مرحلة تشكُّل القبيلة ثم المدينة . وكانت فترة نوح وواقعة الطوفان هي الفاصلةُ بين المرحلتين . وقد ألمح القرآن العزيز إلماحاً إلى ذلك غير مرّة: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) (الأعراف/٦٩) (. . . . فكذبوه فنجيناه ومَن معه في الفُلك وجعلناهم خلائف) (يونس/٧٣) . الأمرُ الذي نفهم منه أن الطوفان لم يكُن مُجرّد عقوبة أو ما يُشبه عمليّةَ تقليم اجتماعي،مثلما تُقلّمُ الشجرة. بل كان الفاصلَ بين فترتين مختلفتيَن في تاريخ تطوّر الحضارة الانسانيّة .

وسيأتي لبيان التأثير الحضاري للطوفان مزيدُ بيان .

الدليل القوي الذي بيدنا فيما يخصّ إشكاليّة وطن نوح عليه السلام منحصر في القبور الأربعة التي تضمّ :

ــ نوحاً في (كرك نوح) .

ــ ابنه شيث في قرية (النبي شيث) . وقد قُلنا على نشوئها مـا

قُلناه في كتابنا على البلدة المُشار إليه فيما سبق . وإن يكُن من الضروري إعادة النّظر في بعضها على ضوء النتائج التي وصلنا إليها في هذا البحث .

ـ ابنه سام في قرية (شمسطار) في السفوح الشرقيّة لـ "جبل لبنان" . ومقامه الآن فيها وقد شيدَ في الآونة الأخيرة .

ـ ابنته حبله / جبله في نطاق قرية (عرجموس) الدّارسة غرب "سهل البقاع".

والقبران الأوّلان،على الأقلّ، ثابتا النسبة إلى النبي نوح وابنه شيث دون ريب . وذلك لِما في القبرين من أدلّةٍ تاريخيّة صادقة ، وقفنا عليها فيما سبق . ثم للشهادة العملانيّة للأجيال المتوالية جيلاً بعد جيل على ذلك . والمؤرخون الإنسانيّون بخاصّة يعرفون جيّداً أن بقاءهما عشرات القرون ما هو إلا استمرارٌ لحضورٍ قويّ لصاحبيهما في وُجدان الناس أثناء حياتهما. لأنّ السيرة الباهرة المُتوراثَة، شّفويّة كانت أم مكتوبة، ليست إلا ابنة السيرة العملانيّة الباهرة أيضاً لبطلها إبّان حياته.

المُهمّ الآن أنّ كلّ هاتيك االبلدان هي، بالاحرى كانت، من قُرى"سهل البقاع" ، الذي بات معروفاً جيّداً للقارئ الذي رافقنا في هذا الكتاب . وإن يكُن قبر سام في "شمسطار" لم يُذكر في المصادر القديمة ، بمقـدار ما بحثنا ونقبّنا ، ربما لأن البلـدة نفسها حادثة النشأة

نسبيّاً سُكّانيّاً من حول المقام .

نقول ذلك مع ضرورة ملاحظة أمرين :

ــ الأوّل: إن القبور الأربعة كانت ، أوّل أمرها وإلى زماننا ، وحيدةً في أماكن غير معمورةٍ بالسُكان . ثم نشأت التجمّعات السُكانيّة من حولها فيما بعد . وقد وقفنا فيما فات على هذه الملاحظة فيما يخص نوح عليه السلام وقبره . كما أننا وقفنا على مثلها في كتابنا على النبي شيث .

ــ الثاني:إنّ القبورالأربعة كلّها تقتعد الهضاب والتلال المُشرفة على السهل ، المُنبسط أمامها من جهاته الثلاث غير الشرقيّ حيث "بعلبك". الأمر الذي يطرح سؤالاً على احتمال أن يكون لذلك أسبابه الموضوعيّة . وعلى كلّ حال ، فنحن نرى أن اختيار الأعالي مكاناً للقبور الأربعة أمرٌ ذو دلالةٍ في الغاية من الأهميّة ، نراه ذا علاقةٍ بالتأثير البيئي المُتمادي للطوفان . سنقفُ عنده في المحلّ المُناسب الآتي إن شاء الله .

(٢) أين حصل الطوفان ؟

البحث عسيرٌ جداً وغير مسبوق بالنحو الذي ينبغي . فضلاً عن أن موضوعه يرجع إلى ستة آلاف سنة أو تزيد (يقول أهل الانثربولوجيا الحديثة أن عمر الإنسان الذي يملك اللغة / الاسماء ، أي

آدم في الانثربولوجيا القرآنيّة ، هو بحدود ثمانية آلاف سنة أو تزيد قليلاً . من قبله الإنسان النياردنتالي، نسبةً إلى اسم المكان الذي اكتُشفت بقاياه في "أُوروبا" ، الذي يُشبه الحالي بالشكل شبهاً ما، لكنّه محرومٌ من اللغة) .

هذا يتطابق عموماً مع قصّة الخلق كما وردت في القرآن العزيز، حيث تنصّ على أن الله تعالى "علّم آدم الأسماء كلّها" (البقرة/٣١) أي علّمه دون غيره من أشباه هذا الانسان اللغةَ باعتبارها "أسماءً" لموضوعاتها من المُسميّات . مع فارقٍ أساسي بين المدرستين ، هو أنّ الأنثروبولوجيا القرآنيّة تتحدّث عن خلقٍ مستقلّ . بينما الحديثة تذهب ، دون سببٍ مفهوم ، إلى أن هذا الانسان هو نسخةٌ متطوّرة / مُحسّنَة عن أشباه الانسان السابقة. فكأنّ التغيّر الإعجازي الفريد الذي نال دماغه ، بحيث بات جاهزاً للّغة ، هو مجرّد خطأٍ حصل مرّةً واحدةً فقط في الحالة التطوريّة التي أنتجت الانواع عند التطوريين evolutionists (!) .

لذلك ، فإنّ علينا الآن أن نُسائل البيئة والملابسات التي حصل فيها الطوفان ، معتمدين ما قد ثبت عندنا صحّته منها فيما فات ، عسى أن نجِد بينها ما قد يُضيئ لنا الطريق إلى الجواب .

لكن قبل الدخول إلى عمود البحث في شأن وطن نوح عليه السلام

يجب علينا أن نقِفَ على مرويّات تقول أن "العراق" ، وبالتحديد مدينتَي "الكوفة" و"النجف" ، هما وطن نوح ومسرح طوفانه . بدأ في "الكوفة" ، حيث فار التنّور في وسط مسجد المدينة ، فيما يُقال . وانتهى في "النجف" ، حيث قيل أنّ سفينة نوح عليه السلام قد رست في بحرها بعد الطوفان .

تلك المرويّات هي التي اشتغل عليها صديقنا السيّد سامي البدري . وعزّزها بدراساتٍ على نصوصٍ من مختلف اللغات العراقيّة القديمة التي يُحسنها . أخرجها في الجزء الأوّل من دوريّة (تراث النجف) ، الذي تفضّل بإهدائه إلينا أثناء تشرّفنا بزيارة المدينة أثناء شهر نيسان / إبريل الماضي ١٩١٩ م . حمل عنوان " **ملفٌّ خاصٌّ حول النجف مرسى سفينة نوح**" .

ومع تقديرنا للجهد المُتنوّع المبذول في الـ "ملف" ، وخصوصاً في إخراجه الأنيق ، فإننا نراه يفتقر بشدّة إلى المنهج العلمي المناسب . فيأخذ بيد القارئ وهو يتقدّم في حلّ إشكاليّة البحث كلّما تقدّم في قراءة فصوله تباعاً، إلى أن يصِلَ في نهاية السعي إلى النتيجة المُتوخّاة . بل نراهُ قد حشد في الـ "ملف" الضخم كميّةً هائلة من المعلومات المتنوّعة، أكثرها ليس له أدنى علاقة بالعنوان المسطورعلى غلاف الملف. ذلك لأنّه لم يُحدّد سلفاً المواصفات التفصيليّة لعناصر الحدث (الطوفان) :

البيئة البشريّة (قوم نوح) ، مواصفات البيئة الطبيعيّة / الجغرافيّة التي حصل فيها الطوفان، السفينة وأوصافها، الطوفان معناه ومساره ونهايته. ولم يعمل على امتحان مدى الاتساق الموضوعي فيما بينها ، بحيث يتركّب من مجموعها قصّة . وبذلك أوقع البحث منذ العنوان في فوضى مفهوميّة . ومن ذلك أنّه وصف "النجف" بأنها "مرسى سفينة نوح" ، مع أنّه لم يكُن هناك من سفينة ، ممّا قد يصلحُ للإبحار ، بالمعنى الذي صوّرته التوراة والأدبيّات الإسلاميّة ، قبل أن نتحدث عن"مرسى" لها. بل لم يكُن ثمة لا "كوفة" ولا "نجف" آنذاك كما سنعرف .

إن غاية البحث في أحداث التاريخ ، والامتحان النهائي لعمل المؤرخ ، هو إلى أي حدّ نجح في إنتاج القصّة . وذلك بتركيب مفرداتها الثابتة أو المقبولة على الأقلّ ، ضمن إطارٍ من السّابق واللاحق زمنيّاً . لأن الحياة نفسها ليست إلا قصّة تحدث ضمن سياقٍ مناسب . وماالتأريخ (بالألف المهموزة) إلا قطعة من سياقٍ تاريخي تخضع لمنطقه . أمّا أن يُثبت ، أو يتوهّم أنّه قد أثبت ، معلومات مُفردة عشوائيّة من هنا وهناك ، دون تركيبٍ قابلٍ للفهم والاستيعاب في قصّةٍ مُنسجمة ، فذلك عملٌ أبعد ما يكون عن عمل المؤرّخ الحقيقي . إلا أن يكون على سبيل تهيئة عناصر البحث بتقميش مفرداته ، مقدمةً لتركيبها في القصة .

ثم أنّ الباحث لم يأخذ بعين الاعتبار أن منطقة "الكوفة" و"النجف" لم توجد إلا بعد قرونٍ طويلة من نوح وطوفانه. وأنّ من المعلوم عند الكافة من المعنيين بالتاريخ الجيولوجي القديم لـ"العراق" ، أن القسم الأدنى منه ، أي وسطه وجنوبه ، قد استتمّ نشأةً منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة فقط ، بتراكم الكميّات الهائلة من الطمي ، التي يحملها نهرا دجلة والفرات أثناء القرون ، لتستقر وتمتدّ باتجاه مصبّهما فيما كان آنذاك بحراً تمخره السفُن جيئة وذهوباً . وذلك في زمن سلسلة الحضارات السومريّة والكلدانيّة ــ الأشورية ، التي بدأ أولُها في الألف الرابع قبل الميلاد ، في المنطقة الجبليّة شمال "العراق" التي كانت آنذاك مُساحلةً للبحر. مع أنّ السيّد البدري يعرف ذلك جيّداً ، ومع أنّنا رأيناه قد زيّن غلاف الجزء الأوّل من دوريته (تراث النجف) بصورةٍ لخارطة قديمة ، تُظهرُ "النجف" بوضوح مستقرّةً على ساحل بحر، اسمه المكتوب "بحر النجف" . والخارطة على كل حال تُظهر طوبوغرافيّة المنطقة بعد ألوف السنين من واقعة طوفان نوح .

فكيف يمكن أن يبني بحثه على أنّ "النجف" كانت موجودة زمان نوح لترسو عندها (سفينته) العتيدة ؟!

وعليه نقول :

كلُّ بحثٍ على التأريخ لطوفان نوح عليه السلام ينبغي أن يبدأ من

النقطة الثابتة الوحيدة . هي أنّ قبره وقبور أولاده الثلاثة منثورةٌ على الهضاب المُشرفة على "سهل البقاع" . ذلك لأن هذا التجمّع الفريد دليلٌ قويٌّ جدّاً على صحّة نسبتها إلى دفينها، وفقاً لِما تقوله المرويّات الشفويّة ، ويدلُّ عليه السلوك الجَمْعي للأجيال المتوالية . وأنْ بالتالي أنّه هو وقومه ، الذين بُعث فيهم نبيّاً ، إنّما كانوا من سكان السهل . ولو انّها كانت قبراً وحيداً منسوباً إلى أحدهم ، لأمكن القول بسهولة أنّها من القبور الكثيرة ، المنسوبة إلى المُسمّيَن أنبياء، وهي منثورةٌ في أنحاء المنطقة الشاميّة ، بحيث لايكاد يخلو منها بلد .

ومع ذلك نقول أيضاً : إنّ الامتحان النهائي لهذا المُنطلَق هو في قدرته على إنتاج قصّة منسجمة مترابطة ، مُركّبة من الوقائع الثابتة ، انطلاقاً منه . ثم أيضاً في العثور على دليلٍ أو أثرٍ يُعزّزها . لِما نعرفه ، من تجربتنا الطويلة في هذا المضمار، أن ما من حدثٍ كبيرٍ تضيع آثاره نهائيّاً دون أن يُخلّف أثراً ، مهما يطُل الزمان . براعةُ البحث والباحث هي في أن يكتشف تلك الآثار ، ثم في أن يقرأها القراءة التركيبيّة المُلائمة .

وعليه نقول أيضاً وأيضاً :

انتهينا فيما فات إلى أنّ الطوفان كان في الحقيقة والواقع سيلاً غزيراً دافقاً ، نشأ نتيجة مطرٍ غزيرٍ جداً ، ظلّ يهطل مدةً

طويلة ، استوعبت الأرض العطشى مياهه في بدايته . ثم ما لبثت ، بعد أن اكتظّت ، أن انفجرت ينابيع غزيرة . ومن مجموع الاثنين تجمّع دفْقٌ مائيٌّ عنيفٌ جداً ، اتجه صوب التّجمّع السُكاني الذي يسكنه قوم نوح عليه السلام ، فدمّره وقضى عليهم ، إلا الذين كانوا معه على الطّوف .

هذا المشهد المُفصّل ، الذي انفرد القرآن العزيز بسرد مفرداته ، من بين كلّ ما سجّله التراث الإنساني على قصة الطوفان ، دليلٌ للعارف على :

ــ أولاً : أصالة القرآن وإلهيّته . ولولا ذلك ، أي لو انّ القرآن كان بشريّاً ، لعجز عن أن يُقدّم مشهداً على ذلك المستوى من التفصيل والواقعيّة . ولاتّبع خُطى المأثورات الكثيرة فيما سجّلته على الحدث نفسه . وهي كانت منتشرة وميسورة في منطقة وزمان نزول القرآن .

ــ ثانياً : إنّ المشهد، من وُجهة نظرٍ موضوعيّة ، لايمكن ان يحصل في أرضٍ منبسطة . بل يقتضي بالضرورة أن يكون الشّكل التضاريسي الذي حصل فيه الطوفان ذا طبيعةٍ انحداريّةٍ عنيفة . من أعلى باتجاه ما هو أسفل . بدونها لايمكن أن تتجمّع الطاقةُ المائيّة ، لتُنتج سيلاً في مثل تلك القوّة التدميريّة الهائلة .

تلك الشروط لا نراها مُجتمعةً إلا في "سهل البقاع" ، شرق ما

هو اليوم "لبنان" السياسي. وحيث مقام نوح وقبور أولاده الثلاثة . وهو وادٍ خصيب ، ينبسط بين سلسلتي جبال "لبنان" الشرقيّة والغربيّة . متوسطُ عرْضِه بينهما عشر كيلو مترات تقريباً . أعلى نقطةٍ منه في الشرق ، حيث مايُسمّى "عتبة بعلبك"، التي تعلو ١٣٠٠ ــ ١٥٠٠ م عن سطح البحر. فوقها جبال السلسلة الشرقيّة .

من "عتبة بعلبك" ينحدر السهلُ بثبات باتجاه وسطه ، حيث يبلغ الارتفاع عن سطح البحر ٧٠٠م. وحيث توجد اليوم أعلى كثافة سُكّانيّة فيه . ليعود إلى الارتفاع صعوداً في طرف الوادي الغربي بعد "سهل عمّيق" . فيتشكّل في وسطه صحنٌ خصيبٌ مُنبسط ، مساحته زهاء ستين كيلو متراً مربعاً. نظنّ قويّاً أنه كان وطن قوم نوح ، وحيث حصل الطوفان.

هاهنا مساحةٌ شاسعةٌ ، تبدأ من السفوح الصخريّة لجبال السلسلة الشرقية . ثم تنحدر الأرضُ بثبات باتجاه وسط السهل ، من ارتفاعٍ ثمانمائة متر. بعرض بضع كيلو مترات .

تلك شروطٌ ملائمة جدّاً لحدوث سيلٍ هائلٍ ذي قوّةٍ تدميريّةٍ تفوق التّصوّر ، في حال هطول أمطار غزيرة مفاجئة لمدةٍ طويلة . ولكم عانت مدينة "بعلبك" من مثله، مع أنّها تقعُ على فم المُنحدَر، وليس أسفله حيث ستتضاعف قوة السيل التدميريّة في حال استمراره .

ومنها سيل سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م. الذي دمّر المدينة تدميراً كاملاً أتى عليها ، عدا مسجدها القديم المعروف اليوم باسم " مسجد الحنابلة " ، لأنه مبنيٌّ من أحجار كبيرة منحوتة ، مأخوذةٌ من الآثار القديمة الكثيرة في المنطقة . فتركها لبضع سنين قاعاً صفصفاً ، إلى أن أعاد أهلُها بناء بيوتهم الطّينيّة ومرافقهم فيها من جديد ، بمساعدةٍ من الإدارة المركزيّة في " دمشق " .

وممّا يجدر بنا ملاحظته ، في سياق إيراد المزيد من الأدلّة على نظريّتنا هذه ، أنّ وسط / صحن السهل المُنبسط ، حيث اليوم بلدتي "رياق" و"علي النهري" وما والاهما ، يمتاز عن كلّ السهل بانبساطه الكامل ، وكأنّ سطحه قد سوّته الأيادي الماهرة . ما يدلّ على أنّ البقعة كانت قديماً بُحيرةً كبيرة . كما يمتاز بتُربته الحمراء الغرّينيّة النقيّة من الحصى ، خلافاً لكل تُربة باقي السهل ، الحصباء الدّاكنة بسبب اختلاطها ببقايا نباتيّة تراكمت أثناء العصور. والأمران يدلانّ على أنّ تُربة الوسط / الصحن حديثةٌ بالقياس إلى باقي السهل ، وعلى أنها قادمةٌ من بيئةٍ صخريّة غنيّة بأكاسيد الحديد ، هي التي يُمكن أن تكون قد وهبتها لونها الاحمر القاني ، خلافاً لكلّ أراضي السهل . على ما بيّنه لي مهندسٌ زراعيّ ، استعنتُ به لبيان سبب ذلك الاختلاف في تُربة السهل . أي أنّها ممّا حمله سيلٌ مائي قوي قادمٌ من

الجبال المجاورة .

إذن ، فمامن ريبٍ عند العارف في أنّ تلك التُربة محمولةٌ من الأعالي الشرقيّة . فضلاً عن أن انبساطها الكامل يدلّ على أنها رواسب كميّاتٍ كبيرةٍ جدّاً من الماء المُتدفّق منها ، جارفاً معه كميات كبيرة من الطّمي الصخري الأحمر. كما يكون شأن السّيل الكبير القادم من الجبال الصخريّة ، بعد أن استقرّ مُكوّناً بحيرةً كبيرة .

هوذا الأثر الباقي من طوفان نوح عليه السلام برسم مَن يُحسن قراءتَه .

هنا يجدر بنا تذكير القارئ ببعض ماذكرناه في الفصل الثالث . حيث وقفنا على أعمال الوالي على القسم الأسيوي من رقعة السلطنة المملوكيّة في "دمشق" الأمير سيف الدين تنكز الحسامي، من إضافة مسجد إلى مقام نوح عليه السلام في "الكرك". إلى استصلاح أراضي وسط "سهل البقاع" بعد أن كانت عبارة عن بحيرة واسعة تمتدّ من بُعيَد "بعلبك" إلى بلدة "عين الجُرّ"المعروفة اليوم بـ"عنجر". أي أن مساحتها مُقدّرة بزهاء الثلاثمائة كيلو متراً مربعاً . فاستنزف ماءها بحفر مجاري باتجاه نهر الليطاني الذي يخترق وسط السهل ، ليصُبّ في البحر. فعمُر فيها نحو عشرين قرية . منها أكبرها اليوم بلدتا "رياق" و "علي النهري" .

فهل نشأت تلك البُحيرة الشّاسعة في مُنخفض صحن "سهل البقاع" بطوفان نوح ، ثم استمرّت تتغذّى بالمتساقطات الشتويّة من أمطار وثلوج سنةً بعد أُخرى ؟

نرجّح ذلك ترجيحاً قويّاً . بدونه مامن سببٍ طبيعي لنشوء بحيرة بتلك المساحة في ذلك المكان . أبرزها غياب الينابيع الغزيرة ومجاري المياه ، بالحجم الذي يمكن أن يُنشئ مثل تلك البُحيرة الكبيرة . ولذلك فإنّ البحيرة ما أن نُزحت مياهها إلى مجرى النهر ، بفضل أعمال الأمير تنكز التنمويّة ، كما عرفنا ، حتى انتهت البحيرة نهائياً ، وعمُرت الأرض التي كانت عليها . ولو انّ نشوءها كان لسببٍ أو لأسبابٍ من طبيعة المنطقة ، لعادت بُحيرةً ، مثلما كانت عليه من قبل .

ثم أنّ استمرار وجود تلك البحيرة أثناء الأزمان الطويلة ، لَيُفسّر لنا لماذا كلّ القرايا القديمة في المنطقة تستقرّ على السفوح المُطيفة بها . بينما القُرى في صحن السهل كلها حديثةٌ نسبيّاً . مع أن عمارة وسُكنى السهل الخصيب المُجاور الغني بالمياه أيسر وأعود بما لايُقاس ، لو انّه كان ميسورا لأهلها .

كما أنها تُفسّر أيضاً لماذا قبور نوح وأولاده الثلاثة منثورةٌ على الهضاب المُطيفة بالسهل ، جميعها أعلى من مستوى صحنه . وما ذلك إلا لأنّ وسط السهل كان مغموراً بمياه البحيرة .

هكذا يكون وجود قبور نوح وأولاده الثلاثة في "سهل البقاع" ، بالتطابق مع مواصفات السهل الفعليّة / التضاريسيّة والتاريخيّة ، دليلاً لا يُدحض على أنّ وسط "سهل البقاع" شرق "لبنان" هو ، دون سواه ، وطن نوح ومحلّ طوفانه .

ومن الآثار الباقية من فترة الطوفان ما يُسمّى اليوم "تلال الدّلهميّة" ، نسبةً إلى اسم قريةٍ مجاورةٍ . وهي عدّة تلال ترابيّة مستديرة بدقّة ، قُطر كلٍّ منها زهاء سبعين متراً ، بارتفاع عشرة أمتار تقريباً . لاريب في أنّها بتلك المواصفات من صنع البشر لغرضٍ ما .

من المؤرخين مَن فسّر صنعها بأنها لأغراضٍ عسكريّة دفاعيّة . أمكنة مُحصّنة على الطريق الاستراتيجّة الموصلة إلى "دمشق" ، شأنَ حصون "اللبوة" و "قصرنبا" و "نيحا" وقلعة "بعلبك" .

لكنّنا نلاحظ :

ـ أولاً : أن تلك التلال ليست على الطريق الرئيسيّة التاريخيّة المُوصلة بين " سهل البقاع " و" دمشق " ، التي تمتدّ على حدود المنطقة المُمتدّة بينهما ، منتشرةً على حافّة السفوح والهضاب ، كي تُقام عليها مواقع وتحصينات دفاعيّة لحراسة الطريق الاستراتيجي .

ـ ثانياً: مامن أثرٍ على سُطوحهاالمسطّحة بدقّة ، لآثار تحصينات . مع أنّ من المعلوم أ نّ هذا النمط من الأبنيّة من أكثرها

مقاومةً لعوادي الزمن .

لذلك فإنّنا نُرجّح بقوّة أنها جُزُرٌ صناعيّة . راكمها الناس بعد زمنٍ من الطوفان على الأرض الرّطبة على هامش البحيرة ، ليعيشوا على ظهرها الذي يتّسع كلٌّ منها لقريةٍ صغيرة.

(٣) أدلّةٌ إضافيّةٌ من التاريخ

على أنّنا لسنا أوّل من أتى على ذكر "سهل البقاع "، بوصفِ بعضه موطن نوحٍ وطوفانه بمعنىً أو بغيره وبعبارةٍ أو بغيرها . بل يبدو أنّ ذلك كان من الأُمور المعروفة المشهورة عند الأقدمين . بحيث أن منهم مَن تركوا إشاراتٍ مختلفة ،

مُبتسَرةً إجمالاً.ربما لأنهم لم يجدوا ضرورةً لبحثه أو إيراده تحت عنوانٍ إشكاليّ بسبب شهرته بينهم. وهي كثيرة، منها:

من هؤلاء سبط ابن الجوزي (ت:٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) حيث نقل:"**إنّ دمشق كانت دار نوح ، ومنشأُ السفينة من خشب لبنان**" [١] . وقد بات معروفاً لدى القارئ ممّا فات ، أنّ بلدة "الكرك" هي على حدود "لبنان" الجبل الغنيّ بالغابات . ولايغترّنّ القارئ بالقول "**إن دمشق كانت دار نوح**" ، فيُبعدُها عن "سهل البقاع" . فذلك دأب بُلدانيّنا في

---

١ ـــ *مرآة الزمان في تاريخ الأعيان* ، ط. بيروت ١٩٨٥م : ١ / ٢٤٤.

نسبة المواقع إلى أكثر البلدان شُهرةً في الجوار. وذلك أمرٌ يعرفه الباحثون . وفي النصُّ التالي شاهدٌ على ما نقول .

ومنهم البلداني شيخ الربوة الدمشقي (ت:٧٢٧هـ /١٣٢٦م) حيث قال:"**وبقاع بعلبك . وفيه موضعٌ يفورُ بالماء فَوْراً ، بالقُرب من كرك نوح عليه السلام يُسمّى تنّور الطوفان**"[١].ولنُلاحظ أنّ النصّ تضمّن شهادةً صريحةً على أنّ موضع الطوفان،حيث ذكرنا، كان أمراً شائعاً ذائعاً بين الناس في منطقة موضوع النصّ ، أي "سهل البقاع" .

لكنّ أكثرها من حيث أهميّة ووُضوح وعُمق دلالة هي ما تضمّنته أبيات لأُميّة بن أبي الصّلت (ت: ٥ هـ / ٦٢٦ م)،ذكر فيها نوحاً وطوفانه ، ذكراً بالغَ الدّلالة على ما نقول :

مُنجِ ذي الخير من سفينة نوحٍ يوم بانت لبنان من أُخراها
فـــار تنّـــوره وجــــاش بمـــاءٍ طمّ فوق الجبال حتى علاها
قيـل للعبـد سرْ فســـار وباللـــــه على الهول سيرها وسُراها
قيل فاهبط فقـد تناهت بك الفُلـك على رأس شاهـقٍ مرسـاها [٢]

١ ـــ *نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر* ، ط. بطرسبرغ ١٨٦٥م / ١٢ .

٢ ـــ ديوانه، ط. بيروت دار الحياة،لات/٨٧.وانظر ابن خرداذبة: *المسالك والممالك*،ط. بريل١٨٨٩م/٧٦.والمقدسي: *البدء والتاريخ*،ط.باريس١٨٩٩م:٣/ ٢٤.

ومن المعلوم لدى القارئ العارف أنّ ابن أبي الصّلت شاعرٌ حجازيّ ، وُلد ونشأ في "الطائف" . وأنّه كان من الأحناف / المُتحنّفين الذين وحّدوا الخالق سبحانه ونبذوا عبادة الأصنام . وكان عظيم الاهتمام بيوم البعث والحساب والجنـة والنار، ولطالما ذكرها في أشعاره وأسجاعه . وأنّه جال البلدان مُسائلاً أرباب العقائد وكُهّان الأديان . وبهذه الوسيلة اجتمعت لديه ثقافةٌ دينيّةٌ واسعةٌ ، بحيث بات واسع المعرفة بالأنبياء الأوّلين وبأخبارهم . ومن هنا استقى معلوماتٍ غنيّةً أتاحت له أن يتكلّم على سفينة نوح وطوفانه ، وغير ذلك من تاريخ النبوّات ممّا أودعه شعره . وأهمّه بالنسبة لبحثنا الآن مايبدو للقارئ المُتمعّن أنّه يعني رُسوّ السفينة على " لبنان" الجبل بعد تمام الطوفان ، ما عبّر عنه في عجُز أوّل الابيـات بما نُعيد صياغته بالنحو التالي :

(يوم بانت جبال لبنان لنوح من أُخرى السفينة) .

وأين يمكن أن يبين " لبنان " ، يعني الجبل ، لمَن يقتعدُ آخـرَ(سفينة) تخوض مياه طوفان نوح من غير "سهل البقاع" ؟ !

أهميّة الابيات إجمالاً بالنسبة إلينا الآن ، أنّها تدلّ ضمناً على أن أمر الطوفان ، وأنه كان قريباً من جبل "لبنان" حيث رست (السفينة) ، كان أمراً معروفاً حتى خارج المنطقة الشاميّة ، وبالتحديد في " اليمن" و"العراق" و" بـــلاد فارس" ، حيث وصل ابـنُ أبي الصّلت

برحلاته وأسفاره ، وحيث التقى الكهان وعلماء الأديان واستقى منهم معلوماته .

***

فذلك جماع ماجتمع لدينا من دلائل ، أثناء مدةٍ طويلةٍ من البحث والتأمّل وتسقُّط المعلومات من مصادرها، ثم من المُزاوجة بينها وتركيبها . بحيث نخرج في نهاية السعي منها بصورةٍ مُنسجمةٍ داخليّاً (القصّة) .

ثم ، وهذا أمرٌ في منتهى الأهميّة ، بحيث تكون القصّة قابلة للاندماج في مواصفات المنطقة وطبيعتها وتضاريسها ، فضلاًعن مواصفات المرحلة التاريخيّة ، التي يُفترَضُ أنّ واقعة طوفان نوح عليه السلام قد حصلت فيها . فلا نقع في مأزق القصّة التي تنفي نفسها بنفسها . من مثل فرْضيّة صديقنا السيّد البدري حفظه الله ، حيث أورد أحداثاً جمّةً تصفُ طوفانات قد حصلت بالفعل في "العراق" ، لكن لايمكن أن يكون طوفان نوح من بينها . لأنها حصلت في منطقةٍ لم تكُن قد وُجدت بعدُ على صفحة الأرض في الفترة التي حصل فيها ذلك الطوفان . فضلاً عن اعتباراتٍ أُخرى يمكن للقارئ الحصيف أن يستنبطها من مجموع مواصفات الطوفان التي وقفنا عليها آنفاً .

***

نقول في خاتمة هذه المرحلة من بحثنا :

ها نحن قد وصلنا ، بحمد الله تعالى ، إلى نتيجةٍ شبه أكيدة (التحفُظ بكلمة "شبه" ناشئٌ فقط من احتمال العثور على معلوماتٍ جديدة ، يمكن أن تكون ممّا فاتنا ، فلم نلحظه أثناء تقميش مادّة البحث ، قد تقلب بعض تفاصيل القصّة كما رويناها ، اعتماداً على وصلنا إليه من نتائج ، دون أن تتعارض مع عمودها) ، ـــ هذه النتيجة تقول ما خلاصته :

إنّ طوفان نوح عليه السلام لم يكُن أكثر من سيلٍ مائيٍّ بالغ القوّة، ضرب وسط "سهل البقاع " ، فيما هو اليوم "لبنان" السياسي، فدمّر المساكن وقضى على السكان الذين لم ينضمّوا إلى من كان في (السفينة) من ذوي قُـربى نوح والمؤمنين من قومه . وأنّ تلـك (السفينة) لم تكُن أكثرَ من طَوْف أو رَمْث ، صنعه نوح عليه السلام وحده وبيديه ، مُكوّنٍ من "دُسُـر" طويلة ، هي عبارةٌ عن جذوعٍ غليظةٍ طويلة "دُسُر" ، لتكون كتلتها قابلةً للطَّفْو بما تحمله ، مأخوذةٍ من الأشجار الحُرشيّة السّامقة (الحَوْر الفارسي أو السّرو العمودي أو غيرها) ، تشدّها إلى بعضها "ألواح " عرْضيّة .

ومن المعلوم أنّ هذه المواد الأوّليّة كانت حتى وقتٍ قريبٍ مُتوفّرةً في غابات جبل " لبنان " .

وبهذه الوسـيلة يمكن لشخصٍ وحيد ، ذي تصميـمٍ وعزيمة، دون كبير صعوبة ، أو مع بعض العون ، صنع طَوْف متين (من ألواحٍ ودُسُر) [١]. يمكن أن يحمل عـدداً قليلاً من البشر ، بالإضافة إلى ما قد يكون معهم من أنعامهم .

***

فهذه هي خلاصة قصّة طوفان نوح ، وطناً وأحداثاً . ركّبناها من عدّة منابع ، أوثقها وأكثرها أهميّةً كتاب الله تعالى ، ثم من المرويّات الشفويّة الشعبيّة التي وعتها ذاكرة الشعوب ، وسجّلتها الكُتُب البلدانيّة والأدبيّة بنحوٍ أو بغيره .

أمّا مانقرأه في بعض كُتُب تفسير القرآن ، وفيما سمّيناه (الأدبيات الإسلامية) ، فهو يعكس بقوّةٍ تأثير الإسرائيليّات والتوراة. مع أنها تحكي قصةً لا يُمكن أن تكون إلا أُسطورة من الاساطير، ستسقط حتماً حينما

---

١ ـــ وقد لخّص القرآن العزيز الصورة بأبلغ بيان : " **ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر . وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر . وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُر**" (القمر / ١٢ ، ١٣ ، ١٤) . وليتمعّن القارئُ الطُّلعَة بخصوصيّة وصف (السفينة) أو (الفُلك) بـ " **ذات ألواحٍ ودُسُر**" . ففيها تفصيلٌ بعيد المغزى ، يدلُّ على استقلاليّة القرآن وإلهيّتَه . في مقابل الصورة الأُسطوريّة في التوراة الرّائجة.

نُخضعها للنقد البسيط . ومع ذلك فإن من قومنا ، من أسف ، مَن تلقّوها بأحسن القبول .

ولعلّ من أكثرها تحريكاً للعجب العُجّاب ، لِما فيها من غير مُخالفةٍ لصريح القرآن ، قولة ابن كثير ، صاحب كتاب التفسير المعروف :

" **أجمع أهل الأديان ، الناقلون عن رُسُل الرحمن ، مع ماتواتر عند الناس في سائر الأزمان ، على وقوع الطوفان ، وأنّه عمّ جميع البلدان . ولم يُبقِ اللهُ أحداً من كفَرة العباد ، استجابةً لدعوة نبيّه المؤيّد المعصوم ، وطبقاً لِما سبق في القدر المحتوم**" [١] .

فكأنّ هذا (المُفسّر) لم يقرأ القرآن . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

١ ــ البداية والنهاية : ١ / ٢٣٧ .

الفصل السادس

ما بعـد الطوفان

(تمهيد)

من تمام البحث أن نقول ما عندنا على مايمكن (بل في الحقيقة على ما يجِب) أن نُسمّيه التأثير الإيجابي للطوفان في الوسط البشري الذي حصل فيه أو تأثّر به أو تداعى إليه ، وإنْ بعد حين. وبذلك نُضيف إلى الصورة الحقيقيّة الواقعيّة التي رسمناها للطوفان ، البريئة من الأسطرة والأوهام ، مايمنحها بُعداً حضاريّاً في الغاية من الأهميّة ، في تلك المرحلة المُبكّرة جدّاً من تاريخ البشريّة . بحيث تكون واقعة الطوفان مدخلاً وتحضيراً لمرحلةٍ جديدة ، بالمعنى الحضاري الكامل للكلمة . بدونها ستكون واقعة الطوفان ، كما عرضتها التوراة ، عملاً عقابيّاً تأديبيّاً لاثمرة له .

(١) البُعد الإيماني لواقعة الطوفان

والظاهر أن هذا البُعد الحضاري هو السبب في تأكيد القرآن مُعيداً مُكرِّراً ، من زاويةٍ أو منظورٍ أومن غيره ، على شخص النبي نوح عليه السلام وعلى واقعة طوفانه . ثم كان ابنه / وصيّه شيث عليه السلام بطلَ المرحلة الجديدة . ممّا سيكون موضع اهتمامنا في الصفحات التالية .

من أبرز معالم هـذه المرحلة الجديدة مايُسميه القـرآن المجيد

"**الصُحُف الأُولى**" (إن هذا لفي الصحف الأولى) (الأعلى/١٨)، تمييزاً لها عن "**الكتاب**". (وهذاكتابٌ أنزلناه إليك) (الانعام/٩٢ و ١٥٥) . وإنّما سُمّيت هي بـ "الأُولى" يعني بالنظر لترتيب التنزيل ، الذي بدأ بالصُحُف ثم تتابع بالكُتُب . وإن يكُن كلاهما من حيث الصُّدور وحياً مُنزَلاً من عند الله تعالى . لكنّ الفارق يكمن في أن ما في "الصُحُف" هو عبارة عن حِكم ومواعظ وآداب فقط[١] ، بما يتناسب مع تلك المرحلة المُبكّرة من تاريخ البشريّة . أمّا "الكُتُب" فقد أتت ، بالإضافة إلى الحِكم والمواعظ والآداب ، بالأحكام والشرائع وقصص الأوّلين . يوم غدت المجتمعات البشريّة على درجةٍ من التعقيد بحيث تقتضي أنظمةً وقوانين .

والقرآن العزيز ، وإن هو لم يأتِ على صُحُفٍ مُنزلَةٍ على شيث بالخصوص ، بل لم يذكره إطلاقاً ، واقتصر على ذكر صُحُفِ إبراهيم وموسى. لكنّ الأحاديث المُتضافرة تأتي أيضاً على ذكر صُحُفٍ مُنزلَة على شيث وإدريس.بل تقول أن صُحُف شيث خمسون، وصُحُف

---

١ ــ أُنموذجٌ صريحٌ منها في الآيات ١٤ــ١٩ من سورة الأعلى، حيث نصّ القرآن في الأخيرة منها على ماأورده من وصايا ومواعظ بـ " إنّ هذا لفي الصُحُف الأُولى" كما ورد ذكرها في الآية ٍ ٥٣سورة النجم.

إبراهيم عشرون ، وصُحُف إدريس ثلاثون[1]. ومنه نفهم أنّ الصُحُف المُنزلَةَ على شيث ليست الأُولى نُزولاً فقط ، بل أيضاً الأكثر عددا .

فإن نحن فهمنا من مُجمل الأمر أن المقصود ليس شيث ابن آدم ، بل ابن نوح عليهما السلام ، كما يقتضي الفهم والتّتبُّع الذّكي لحركة النبوات ، التي سنراها قد نشُطت بعد الطوفان . وكان بطلها دون مُنازع شيث بن نوح ، سنرى آثارها على التّوّ . ـــ إن نحن فهمنا ذلك ، فإنّنا نستطيع أن نبدأ من هذه النقطة رصْدَ التطوّرات الحضاريّة الجديدة ، التي نشُطت تباعاً بعد انجلاء الطوفان .

ثمة دلائل قويّة على أن صُحُف شيث قد انتشرت انتشاراً واسعاً أثناء حياته . وأنها بقيت من بعده لمدّةٍ طويلةٍ النصوص الدينيّةَ الرئيسةَ في المنطقة الشاميّة ووادي الرافدين على الأقلّ. أعني إلى حين تنزيل الكُتُب،التي كان أوّلها التوراة المُنزلَة على موسى عليه السلام . ممّا لانزال نجدُ آثاره وأصداءَه لدى غير فرقةٍ من الفرق الدينيّة العريقة في

١ـــانظر ما عن علي عليه السلام في *الوافي*:٢/٣٢٠:"**كانت صحف إبراهيم عشرين وصُحُف إدريس ثلاثين وصُحُف شيث خمسين**".وفي معاني *الأخبار* للصدوق بسنده/٣٣٤:" **إنّ الله تعالى أنزل مائةً وأربعة كُتُب . أنزل منها على شيث خمسين صحيفة** " .

المنطقة . نخصُّ بالذكر منها الصابئة المندائيين في "العراق" .

والمعروف أن الصابئة هم أصحابُ أوّل ديانةٍ توحيديّةٍ باقية حتى اليوم في العالَم . وقد حفظ لهم القرآن العزيز مكانتهم التاريخيّة ، بأن ذكرهم مرتين في الآيتين:البقرة/٦٢ والمائدة/٦٩ ، بوصفهم بين المُمثلين لحركة الإيمان في العالَم في طورٍ من أطوارها . واصفاً إياهم بأنهم (مَن آمن بالله واليوم الآخر) (النساء / ١٥٠) .

من بقايا فترة شيث من الصابئة الفرقة المُسماة (يوحنّاسيّة) ، نسبةً إلى يحيى بن زكريّا عليه السلام . وهو آخر الأنبياء عندهم . وهم يؤمنون بالخالق جلّ وعلا ، وبأنه واحدٌ أزلي ، مُنـزّه عن المادّة ، لاتناله الحواسّ ، لم يلد ولم يولد . وهو علّة وجود الأشياء ومكوّنها. كما يؤمنون بالحشر والمعاد.

ومن شعائرهم الدينية الطهارة والتطهير بالماء والوضوء والصلاة والصيام . وشعارهم الذي يستفتحون أعمالهم به ، الذي يستفتحون به " باسم الله المُتعالي " [١]. وكتابهم المقدّس (جنز أربا) =

١ـانظر شهادة المؤرخ العراقي الخبير بأحوال العراق وأهله السيد عبد الرزاق الحسني بشأنهم . وكان قد صنّف عليهم كتاباً ، نسبهم فيه إلى الوثنيّة وعبادة الكواكب . ثم بعد أن اطّلع على كُتُبهم وشعائرهم كتب مقالةً مبسوطةً ، وصفهم فيها بما قلناه أعلاه . مجلة العربي الكويتيّة ، العدد ١١٢ سنة ١٩٦٨ م .

الكنز العظيم ، يتضمّن صُحُف شيث فيما يعتقدون . والظاهر أنهم هم الذين أتى القرآن العزيز على ذكرهم بما ذكرناه قبل قليل . وانفرادُ القرآن العزيز بذكرهم بذلك، خلافاً لِما شائعٌ عنهم بين الناس قديماً وحديثاً ، لدليلٌ قويٌّ على أصالة القرآن وإلهيّته .

ما هو الجدير منّا بالملاحظة والاعتبار الآن أمران :

ــ الأول : نفس انتشار هؤلاء الصابئة الواسع اليوم من "سوريا" إلى جنوب "العراق" إلى غرب "إيران" ، بل ربما إلى "مصر" أيضاً كما سنعرف. وهو انتشارٌ يستند دون ريب إلى حالةٍ تاريخيّةٍ أكبر بكثير، عميقةٍ في الزمان . أي أنّ هؤلاء ليسوا إلا البقيّة الباقية من انتشارٍ أكثف بما لا يُقاس . بعد أن أخذت النبوّاتُ المتتاليةُ منذ موسى عليه السلام من كتلتهم البشريّة . مثلما فعلت بأتباع غيرهم من الديانات والنِّحَل التاريخيّة .

ــ ثانياً : نفس ادعائهم أنّ في حوزتهم الصُحُف المُنزَلَة على شيث ، محفوظةٌ حتى اليوم ضمن كتابهم المقدّس عندهم (جنز أربا) . حيث المُهمّ الآن ليس التدقيق في صحّة أو بطلان الدعوى ، بل في الادعاء بنفسه . من حيث دلالته على علاقةٍ تاريخيّة ما بين شيث وصُحُفه ، وبين النِّحلة المُسماة الـ (صابئة) .

ثم أنّ الذي يؤخذ من بعض المصادر ، أنّه كان في "مصر"

منذ القرن الرابع الميلادي ، إلى ما بعدها بمدّةٍ غير معلومة ، فرقةٌ يُسمّون(الشيثيّون) . وأنهم كان في حوزتهم مايُسمّى "شرح سُنن شيث". وهي فيما يُقال سبعة كُتُب لشيث وسبعةٌ أُخرى لأبنائه [1] .

هنا أيضاً نقول ، ليس المُهمّ بالنسبة إلينا الآن التدقيق في صحة نسبة تلك الكُتُب من عدمها ، حتى وإن أمكن ، بل إنّ الأهميّة كلّ الأهميّة هي في مجرد الدعوى . من حيث دلالتها على وصول حضور شيث ، بمعنىً أو بغيره ، إلى تلك البقعة من المنابت الأُولى للحضارة الإنسانيّة .

ولنذكر في ختام هذا السّرد ، ما يُقال عن الحنيفيّ الحجازي ورقة بن نوفل ، الذي يُذكَرُ في المصادر غالباً بوصفه حنيفيّاً موحِّداً نابذاً لعبادة الاصنام ، باحثاً حثيثاً عن الإيمان الصحيح قُبيل البعثة المحمّديّة ، ـ فيُقال أنّه قرأ صُحُف شيث وصُحُف إبراهيم [2]. فهذا خبرٌ إن صحّ يدلُّ على أنّ صُحُف شيث كانت موجودةً في زمانه برسم مَن يهمّهم الأمر .

فائدة هذا السّرد الواسع ، الذي خضنا به في أعماق التاريخ

---

١ ـ مادة "شيث" في دائرة المعارف الإسلاميّة للمستعرب رينوار .

٢ـ بحار الأنوار : ١٦ / ٢١ .

البعيد لمناطق الحضارات الأُولى ، المُمتدّة من "مصر" إلى "إيران" ، أنّه يُبيّن لنا الحضور القوي الواسع لشيث بن نوح عليه السلام في الثقافة الدينيّة بعد فترة الطوفان. وإن نكُن لانملك أدنى تصوّر للطريقة التي حصل فيها ذلك الانتشار الواسع . لم نُغادر في ذلك السّرد إلا مايُقال عَرَضاً في بعض الكُتُب على موقعٍ له أيضاً في عقيدة الموحّدين الدروز، القاطنين اليوم في "لبنان" و "سوريا" . لا لسببٍ إلا لأننا لم نظفر بمعلومات كافيةٍ عن الموضوع ، بسبب صعوبة الحصول على معلومات مباشرة موثّقَة في كلّ ما يخصّ عقائد وشعائر هذه الطائفة الباطنيّة وثقافتها السّرّيّة .

(٢) الابعاد الحضاريّة لواقعة الطوفان

تحت هذا العنوان سنعمل على رصد ماوقفنا عليه من وجوه الانثربولوجيا ذات الصفة الإيمانيّة ، أي التي تركّبت من مادةٍ حصلت في ظلّ حركة النبوّات.أخصُّ منها ما يتصل وترتّب على واقعة الطوفان. وما من ريبٍ لديّ أن القليل الذي سأُورده ، على طرافته وجِدّته ، يمكن بمزيدٍ من البحث والتوفيق أن ينضافَ إليه غيره .

نعني بـ "الحالة الحضاريّة" ما قد نراه مُتمثّلاً في معالم ماديّة ثابتة ، ممّا يتركه السّلفُ للخلف . ما كان منها باقياً ماثلاً باقياً بنحوٍ أو بغيره . وماكان منها دارساً مذكوراً في المُحرَّرات من كُتُبٍ ووثائق .

فمن أوّل وأولى ما يحسُن بنا ذكره في هذا النطاق ما جاء في الخبر "**إنّ أولَ مَن بنى الكعبة شيث** " [١] .

والمعروف إلى حدّ الاشتهار، أنّ بناءها الأوّل قد تمّ على يد أبينا آدم[٢] عليه السلام . ومع ذلك فإنّ من الممكن الجمع بين الخبرين . وذلك بالقول أنّ بناءها الأول هو الذي تمّ على يد أبينا آدم ، ثم الثاني على يد شيث بن نوح ، وأنهما كانا بالمواد الأوليّة الطبيعيّة المتوفّرة ، أي بالحجر والطين[٣]. وهي موادٌّ لاتصمد طويلاً لعوادي الطبيعة . فكانت تنهدم ليُعاد بناؤها مراراً . ولم تستتمّ بناءً إلا على يد إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (البقرة/١٢٧) . وما ذلك إلا لأنّ بناءها هذه المرّة ترافق مع بدء عُمران مُحيطها .

---

١ ــ العيني : عُمدة القاري في شرح صحيح البخاري ، ط. مصر ، مطبعة بولاق لات. : ٩ / ٢١ و ١٦ / ٢٨٨ .

٢ ــ عن علي عليه السلام من حديث :". . . آدم بنى منه ما بنى وطاف به . ثم الأنبياء من بعده . ثم استتمّ بناءه إبراهيم" (فتح الباري: ٦/ ٤٠٦ و٤٠٩) وانظر الأزرقي :أخبار مكة، ط. بيروت ١٣٨٩هـ/٢٦ وما بعدها .

٣ـ نظراً لروايةٍ عن الاخباري وهب بن مُنبه أن شيث "هو الذي بنى الكعبة بالطين والحجارة" . (ابن قتيبة : المعارف / ٢٠) .

بحيث ساغ لإبراهيم أن يصِفَ نطاقها بـ "البلد"(ربِّ اجعل هذا **البلد** آمناً) (إبراهيم/ ٣٥) ، وإن مجازاً بعلاقة الأوْل والمُشارفَة.

ذلك ما يُستفادُ من قوله تعالى : (ربنا إنني أسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع) (إبراهيم/٣٧) . كما أنّ ما يُستفادُ من قوله تعالى: (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) (الحج/ ٢٦) أنّ مكان البيت وقواعده كانت مبنيّةً ومعروفةً قبل إبراهيم عليه السلام . لكنّها ضاعت بتوالي القرون. وأنّ الله تعالى بوّأه مكان البيت ، أي هداه إليه ، في سبيل إعادة بنائه من جديد ، بمعونة ولده إسماعيل ، هو البناءَ الذي سيبقى من بعده .

في هذا السياق من البحث وتدبّر آيات الكتاب ، فإنّه يبدو من المقبول ، من حيث المبدأ ، القول إنّ شيث بن نوح هو أولُ مَن بنى الكعبة ، بعد أن انهدم وضاع أثرُ ما كان قد بناه أبونا آدمُ قبل قرون من الزمان .

بل إنّ القارئ ، الذي بات عارفاً بما يكفي أنّ الخطوات الحضاريّة العمليّة الإعداديّة للبشريّة المُتنامية قد بدأت في عهد شيث وعلى يده ، وعلى رأسها إنزال الصُحُف ، ومن ثَمّ انتشارها ذلك الانتشار الواسع ، ـــ هذا القارئ لَتبدو له المُباشرةُ ببناء الكعبة من جديد ، بوصفها (أوّلَ بيتٍ وُضع للناس) (آل عمران/٣) ، خطوةً جذريّةً ، وفي محلّها وتوقيتها المُناسب تماماً .

هذه النتائج تتعزّزُ بقوّة بنصٍّ مدهش ، لطالما قرأه القارؤن ، دون أن يأخذوا مضمونه على نحو الجِدّ ، لا لسببٍ إلا لأنهم لايملكون صورةً مثل التي بتنا نملكها الآن عن مواصفات الفترة التي عاش فيها شيث وخصوصيّتها . ليأتي هذا النّصّ فيمنحها عُمقاً إضافيّاً . سنرى أنّه يتصل اتصالاً وثيقاً بالإشكاليّات التي نعالجها في بحثنا هذا .

النصّ يصِفُ شيث بأنّه "**أوّلُ مَن عاقب بالقتل ، وأوّلُ مَن تقلّد السيف ، وأوّلُ مَن مدّن المدائن وبستن البساتين**" [١] .

المغزى الإجمالي لهذه الاوصاف المُذهلة ، أن أعماله كانت مُفترَقاً أساسيّاً في تطوّر الحضارة ، في مرحلةٍ مُبكّرة من تاريخ البشريّة . وأنّه هو رائدٌ كبيرٌ من روّادها .

هل نحن بهذا النّصّ القصير أمامَ انثربولوجيا إيمانيّة ؟

من الواضح أن الانثربولوجيا الإيمانيّة تختلف اختلافاً جذريّاً عن الأُخرى المُستندة إلى آثارٍ ماديّةٍ من العصور الغابرة، لكنّها تأخذ معانيها من أفكار مُسبَقَة ، ـــ نقول " تختلف" لأنها أيضاً تحترم وتأخذ بعين الاعتبار معلوماتٍ سكنت الذّاكرة البشريّة آلافَ السنين، وتناقلتها الأجيالُ

---

١ ـــ علي بن زيد البيهقي : تاريخ البيهقي (الترجمة العربيّة) ، ط . بيروت ١٩٨٢م / ١٥ وعُمدة القاري :١٦/١ .

تلو الأجيال . إلى أن جاء مَن سجّلها من رُواة التأريخ ، أخذاً من المذخورات الشعبيّة المأثورة . كما هو حال أخبار الأُمم الغابرة إجمالاً ، قبل أن تأتي مرحلة التسجيل .

لذلك نقول في الجواب : نعم ! نحن بالتأكيد أمام انثروبولوجيا إيمانيّة . بمقدار مايعنيه دور ومساهمة النبوات والتنزيل في بناء الحضارة . وفي ذلك النصّ دليلٌ قاطعٌ على ذلك . كامنٌ في نسبة عدّة إنجازات حضاريّة إلى النبي شيث عليه السلام ، أكثرها أهميّةً " **تمدين المدائن** " للسبب الذي سنُدلي به . أي، باللغة الانثربولوجيّة،انتقال البشر من مرحلة التّجمعات الأُسريّة الصغيرة، إلى مرحلة التّجمعات السّكنيّة الكبيرة الثابتة . ثم انتقالهم أيضاً إلى"**بستنة البساتين**" أي زرعُ البشرِ الأشجارَ والاعتناء بها ابتغاء استثمارها ، بعد أن كان البشر من قبلُ جوّالين ، يحصلون على الثّمار من الأشجار البرّيّة والغابات . بالإضافة إلى تأسيس نظامٍ للعقوبات ، يتولاّه حَمَلَةُ سلاح مهمتهم فرض القانون بالقوّة القاهرة حين اللزوم .

ومن المعلوم أن هذه خطواتٌ كبيرةٌ في تاريخ الحضارة.

ولكن إلى مَ استندنا في وصفنا الدليل على أن (شيث) هو بطل المرحلتين في حضارة المنطقة بأنه " **دليل قاطع** " ؟

نقول في الجواب : نحن نستندُ إلى أن المُدُن التي مدّنها ما

تزال قائمةً عامرةً تحمل اسمه حتى اليوم ، شاهداً ناطقاً على فترةٍ فاصلةٍ من تاريخ المنطقة على الأقلّ . وهي بلدانٌ ثمانية ، تنتشر بخطٍّ طولي على الهضاب والتلال المقابلة لساحل البحر المتوسط فيما هو اليوم "لبنان" السياسي . هي بحسب تسلسلها الطوبوغرافي: "حبشيت"، "حدشيت" ، "عمشيت" ، "كفرياشيت" ، "برعشيت" ، "عدشيت" (قريتان بالاسم نفسه في جبل عامل) ، "جبشيت" .

تلك القرى، كما قلنا ، تنتشر بخطٍ طوليّ مسافة مائة وخمسين كيلومتراً تقريباً ، ابتداءً من "حبشيت" في شمال "لبنان" ، إلى "عدشيت" في جنوبه . وهذا التقاطع بين الخبر المنقول والواقع المَشهود من أقوى الأدلّة التاريخيّة ، إن لم نقُل أنّه أقواها على الإطلاق .

أمّا " **بستنة البساتين** " فما من شاهد ماديّ باقٍ عليها ، لأن البساتين لاتبقى بقاءَ المُدُن وأسمائها . لكنّ الذي يكون من سطوته وحُسْن سياسته وجذريّتها أن يُمدّن مُدُناً بذلك العدد، في تلك المرحلة المُبكّرة من تاريخ البشر ، لن يكون مُستبعداً عليه بستنة البساتين . والقول نفسه ينطبقُ على إنجازاته الحضاريّة الأُخرى .

في هذا السياق من البحث علينا أن نقِف على :

ــــ مامن ريبٍ على الإطلاق في أنّ اللاحقة (شيت) في أسماء هاتيك البلدان تعني شيث بنَ نوح ليس غير. خُفّفت الثـاء فيها

إلى تاء ، كما تفعل العاميّة الشاميّة غالباً . ولا عبرة بما يُردّده بعضُ المؤرخين أنها تعني اسم إله ممّا كان يعبده القدماء . يقولون ذلك تبعاً لزملائهم من المؤرخين الغربيين ، الذين ينتمون إلى ثقافةٍ لامحلّ فيه للنبوّة والانبياء، تأثُّراً بالتوراة التي لا تمنح درجة النبوّة إلا للذين هم من أبناء إسحق بن إبراهيم . ولذلك نراهم ينسبون كلَّ ماهو من هذا القبيل إلى أرباب تاريخهم الوثني وآلهته .

ــ إنّ البادئة في أسماء البلدان الثمان (حب ، حد ، جب ، عد ، بر، عم) هي بلغةٍ قديمةٍ جدّاً . ليست تنتمي إلى أي لغةٍ من اللغات التي كانت سائدة في المنطقة الشاميّة إجمالاً ، قبل أن تُسيطر اللغة العربيّة. وهي بالتأكيد ، باستثناء "كفريا"= قرية ، لاتنتمي إلى الآراميّة السوريّة/الغربيّة . أي أنّها بالنتيجة قديمةٌ جدّاً، وسابقة على كلّ اللغات واللهجات القديمة ، التي يعرفها أهلُ الاختصاص .

وقيل في مصدرٍ غير موثوق لدينا ، دون ذكر سندٍ لِما قال ، إن كلمة "برعشيث" معناها " نسل أو سُلالة أو أولاد أو بني شيث "[١] . فأثبتناه على علاّته .

---

١ ــ طوني مفرج : قُرى ومدن لبنان (ضمن الموسوعة اللبنانيّة) ط. بيروت ٢٠٠٢ : ٢٥٦/٢٩.

ــ إنّ التزام الأسماء الثمان بلاحقةٍ واحدة "شيت" ، لَيدلُّ على أنّها صدرت من إرادةٍ واحدة . وأنها رمتْ إلى أمرٍ واحدٍ . وأنّ صاحبها / مهندسها كان موجوداً فاعلاً في البقعة التي انتشرت تلك المُدُن فيها ، بحيث هندسها وبناها لأوّل مرّةٍ في التاريخ الإنساني . وكأنّه كان يتحرّك باتجاه تمصيرها بحسٍّ حضاريٍّ قوي ، وفق خطّةٍ مُحكَمةٍ ومشروعٍ حضاريٍّ تمدينيٍّ واحد .

إن نحن أخذنا بهذه المُعطيات المُتآزرة ، فإننا سنصِلُ إلى نتيجةٍ رائعةٍ جداً ، هي أنّ شيث ، ومن قبله أبوه نوح عليهما السلام ، قد عاشا على أرض ماهو اليوم (لبنان) السياسي . أي أنها تُقدّم دليلاً إضافيّاً قويّاً جدّاً على أنّ وطن نوح والطوفان قد كان حيث انتهى إليه البحثُ الضّافي في الفصل السابق .

الآن بات بإمكاننا أن نُضيف فنقول : إنّ الأركيولوجيّين ، archeologists ، دارسي المُستحاثّات البشريّة ، من بقايا المُدُنِ ومختلف المعالم القديمةالدّارسة ، يتفقون على أنّ مايُسمّى عندهم منطقة "الشرق الأوسط" هي المهد الأكيد للمُدُن الأُولى في التاريخ . تتنازع الأوّليّةَ فيه ثلاثُ مُدُن هي "بعلبك" و "دمشق" و"أريحا" . التي يُقال أنّها نهضت بالتوالي أثناء الألف الرابع قبل الميلاد .

المُهمُّ أنّ استنهاض تلك البلدان الشيثيّة الثمانية ، على يد وبمبادرة شيث بن نوح ، إثرَ واقعة الطوفان ، ينطوي على دلالةٍ قويّةٍ على أنّها سابقةٌ على تلك المُدُن الثلاث ، وأنّها ترتفع بتاريخ تمدينها إلى ما قبل ألفي سنة تقريباً من نشوء تلك المُدُن، أي إلى الألف السادس قبل الميلاد .

هوذا ما يمنح واقعة الطوفان ، كما انفرد القرآن برواياتها، مضموناً حضاريّاً أساسيّاً ، يتجاوز بمسافةٍ طويلة صِرْفَ صفة تأديبيّة ــ إنتقاميّة ، كما وردت في التوراة ، للذين كانوا أوّلَ مَن انحدروا إلى عبادة الاصنام ، وتأثّر بها من أسف بعض الإسلاميين .

خلاصاتٌ ونتائج

مهما تكُن وجهة نظرنا في حلّ الإشكاليّات التي عالجناها في متن الكتاب فيما يخصُّ نوحاً وطوفانه ، فإنّ ممّا لا ريب فيه أنّها تغوصُ في مرحلةٍ متقـدّمةٍ من مراحل انتشار هـذا الطّور من البشـر (أولاد آدم) ، المُسمّى في الانثروبولجيّات الحديثة (الإنسان العاقل) / الهومو سابينس Homo sapines ، الذين خصّهم خالقهم سبحانه وتعالى بنعمة القُدرة على تسميةَ الأشياء واستحضارها (وعلّم آدمَ الأسماء كلّها) (البقرة/٣١). وذلك امتيازٌ لم يحظَ بمثله أيُّ خلقٍ من قبلهم . إلا أن يكون ممّن هم مثلنا أو أفضل منّا في هذا الكون الفسيح.

من وُجهة نظرٍ منهجيّةٍ ، فإنّ أوّلَ خُطوةٍ خطاها بحثُنا التمييزُ بين مصادر المعلومات ذات العلاقة ، من حيث قيمتها بالنسبة للبحث والباحث : العهد القديم / التوراة ، الأدبيّات الإسلاميّة . حيث اكتشفنا بسرعة أنّهما وجهان للذهنيّة نفسها . وهي هنا الانجذاب الطّبْعي البشري لفنتازيا الأُسطورة وسحرها، بوصفها تعرضُ عملاً خارقاً ، يليق عندها بجلال الخالق وصُنعه ، مهما يكُن بعيداً عن منطق الأشياء . وفي هذا السّياق الذّهني تنكّرت الأدبيّات الإسلاميّة للرواية القرآنيّة .

مقابلهما القرآن العزيز الذي عرض روايةً مختلفةً كل الاختلاف لسيرة نوح عليه السلام وقصّة الطوفان ، نصرناها وبرهنّا عليها في عرضنا

للقصّة الحقيقيّة للطوفان . ولولا هذا التمييز منذ البداية بين مصادر المعلومات الثلاثة، لوقعنا فيما وقع فيه غيرنا ممّن وضعوا تلك المصادر الثلاثة على صعيدٍ واحد ، فسقطوا في فخّ الأُسطورة ، وخرجوا من منطق التاريخ .

استناداً إلى ماعرضه القرآن في مختلف سوره شكّلنا العمود الأساسي لبعض سيرة نوح عليه السلام ولقصّة طوفانه . جَماعُها العناصر التالية :

ــ أنّ نوحاً عليه السلام هو أولُ الرُّسُل من أُولي العزم ، بُعث إلى قومه الذين كان أكثرهم من عبدة الأصنام . وبعد أن أنذرهم مراراً وتكراراً دون جدوى ، بحيث يئس منهم . دعا الله تعال أن يقضي عليهم ، خشية أن يستمرّ ويتأسّس ضلالهم في أخلافهم . فاستجاب الله تعالى دعاءه ، وأخطره بأنهم مُغرَقون لامحاله. وأمره أن يصنع سفينة برسم المؤمنين .

ــ أنّ الطوفان كان سيلاً هائلاً . حصل بأمطار غزيرة مستمرّة . دمّرت وطن القوم ، وقضت على الكافرين منهم ، الذين لم ينضمّوا إلى نبيهم نوح في (السفينة) التي صنعها بيده ، بالموت غرقاً.

ــ أنّ (السفينة) كانت عبارة عن طوف أو رمث كبير. صنعه نوح بيده من الأخشاب المُتوفّرة في الغابات المحلّيّة . اتسع للمؤمنين

ومن ذوي قُرباه من البشر ، بالإضافة إلى ما قد يكون معهم من بعض أنعامهم .

ولقد أجمل التنزيلُ قصّة النبي نوح عليه السلام وطوفانه بالآيات ٥٩ ــ ٦٤ من سورة الأعراف فقال : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنّي أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم. قال الملأ من قومه إنّا لنراك في ضلالٍ مبين . قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكنّي رسول رب العالمين . أُبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلمُ من الله ما لا تعلمون . أوَعجبتم أن جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجلٍ منكم ولتتقوا ولعلكم تُرحمون . فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلك وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا إنّهم كانوا قوماً عمين) .

وكما في كلّ قصّةٍ ممّا قصّه علينا القرآن ، دائماً ابتغاء ما فيها من العبرة ، ثمة دائماً تفاصيل . لم يقِفْ عندها لأنّها خارجَ غرضه الأساسي من إيراد القصّة . لكنّها بالنسبة إلينا اليوم بوصفنا باحثين هامّةٌ جدّاً . خصوصاً بعد أن أغرقها غيرُنا بأوهامه وخيالاته .

بالبحث ، وتقصّي المعلومات المُبعثَرَة ، وتركيبها بما يتناسب مع طبائع الأشياء ومُقتضيات الاحداث . ثم بملاحظة الآثار الماديّة الباقية ، ــ وصلنا إلى قناعةٍ قويّة بأنّ واقعة الطوفان كما وصفناها قد حدثت في وسط "سهل البقاع " شرق " لبنان " . وذلك بدليل :

ـ وجود ضرائح نوح عليه السلام وأولاده الثلاثة على المرتفعات المُطيفة بالسهل . ولو انّها كانت ضريحاً واحداً فقط لأمكن أن يُقال إنه ، كغيره من الضرائح الكثيرة المنسوبة في المنطقة ، الله أعلم بصحّتها .

ـ هندسة ضريحي نوح وابنه شيث المُتماثلة الفريدة ، التي تدلّ على أنّهما بهندستهما لا تنتميان إلى فترةٍ من الفترات التاريخيّة المعروفة . بل إلى فترةٍ سابقة مجهولة . لاريب في أنّها من أوائل عمران المنطقة .

ـ نُقولات تاريخيّة وبلدانيّة وأدبيّة جمّة ، لاريب في أنّها من أُصولٍ شفويّةٍ قديمةٍ ، تقول أن وطن نوح كان في المنطقة ، وأنّ سفينته استوت بعد الطوفان على سفحٍ من سفوح " لبنان " الجبل .

وإنّنا ما نزال نأمل أن نصِلَ ، بالبحث الصّبور في مصادر الاسماء القديمة لمعالم المنطقة ، إلى الموقع الحقيقي للجبل المُسمّى بـ " الجُودي " .

ـ إنّ طوبوغرافيّة السهل المُقعّرَة ، من الأعالي شرق "بعلبك"، حتى أدناها ارتفاعاً عن سطح البحر في وسطه ، حيث اليوم بلدتا " رياق " و " علي النهري " وغيرهما ، مهيّأةٌ تماماً لحصول سيلٍ غزير.

ـ ذلك السيل حصل في تلك المنطقة دون ريب . بشهادة أنّ

وسط السهل ظلّ إلى ما قبل بضع قرون بحيرةً واسعةً تُغطيه كلّه،لاشكّ في أنّها نشأت من دفقٍ مائي كبيرغريب عن الأرض . فضلاً عن أنّ تُربته مختلفة عن تُربة كل ما بقي من السهل ، بلونها الأحمر الغرّيني الغنيّ بأكاسيد الحديد ، التي تدلُّ على أنّ أُصولها من صخور الجبال الصخريّة الشرقيّة . فضلاً عن أنّ تسطّحها يشهد على أنّها رسوبيّة . وكلّ هذه الملاحظات لاتفسير لها إلا بأنّها من آثار طوفان كبير .

ــ إنّ كلّ قرايا السهل الحديثة النشأة نسبيّاً هي في الوسط . نهضت بفضل استصلاح الأرض ببزل مياه البحيرة الباقية من أثر الطوفان باتجاه النهر الوحيد الذي يخترق السهل من شرقيّه إلى الجنوب الغربي . في حين أنّ كلّ القرايا القديمة تستقرُّ في الأعالي المُتفاوتة الارتفاع ، حيث توزّعت ضرائح نوح وأولاده الثلاثة .

ختاماً ، أرجو القارئ اللبيب أنّ يلاحظ ، أنّ تلك المجموعة المُتآزرة من الدّلائل ، لم نرها مجتمعةً إلا حيث انتهى إليه بحثُنا . ما يدلّ على أن كل ما يُخالفها يفتقر بشدّة إلى الدليل الصحيح .

والحمد لله

ملحقٌ بالبحث

نصّ وقفيّة الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش على مقام النبي نوح عليه السلام ودراستنا وتعليقاتنا عليها . ضمنها وقفيّة الأمير تنكز الحسامي الأُولى على المقام نفسه .

وقفيّة الأمير محمد الحنش على مقام نوح عليه السلام

(١)في التعريف بالوثيقة

وقفيّة الأميرمحمد بن ناصر الدين الحنش من وثائق الوقفيّات المشهورة بين الباحثين. اعتنى بها غير واحدٍ منهم نشراً وتعليقاً . وقد شاركتُ في المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام الذي انعقد في عمّان سنة ٢٠٠٠م بدراسةٍ عموديّةٍ عليها . فقرأتُها من وجهة نظرٍ فقهيّة ، بوصفها قد أسّست بدهاء ، وعن غير سابقة ، لنمطٍ من الوقفيّة المُتسلسلة الولاية . كما قرأها غيرُنا قراءةً تقنيّة احترافية وصفيّة . أمّا هاهنا فسنثبتها من ضمن التأريخ لبلدة (كرك نوح) ومقامه فيها ، وما تنطوي عليه من دلائل ومغازي في هذا النطاق .

بطلا الوثيقة اثنان :

ــ البطل الأوّل : الواقف الأمير محمد بن ناصر الدين الحنش . وهو امرؤٌ لا نعرف الكثير عن شخصه . سوى أنه من أُسرةٍ ترجع بأُصولها إلى عُربان (حماة) ، لعبت دوراً هامّاً في تاريخ (سهل البقاغ)، شرق ما هو اليوم (الجمهوريّة اللبنانيّة) . وكان والده ناصر الدين من قبلُ والياً على (صيدا) وكامل (سهل البقاع) قبل الفتح العثماني لـ (الشام) . ولمّا وصلت طلائع العثمانيّين إلى السهل لاقاهم بعسكره

بالقُرب من (دمشق) وأنزل بهم هزيمةً ساحقة . وجازاه السلطان المملوكي على ذلك بنيابة(حمص) . وطبعاً لم يسكت العثمانيّون على الهزيمة ، فأتوا بجيوشهم الجرّارة . وفي المُقابل شكّل هو تحالفاً مع عددٍ من الأُمراء المحلّيين من آل معن . رمى إلى تنظيم مواجهة السُلطة الصّاعدة . ممّا يدلّ على أنه وإياهم لم يستوعبوا معنى دخول العثمانيين في الصورة السياسيّة للمنطقة . وطبعاً انتهى التحالف إلى الفشل الذّريع . بعد معركةٍ نشبت في منطقة (جوسيّة) ، على الحدود اللبنانيّة السوريّة اليوم . لكنّ القتل في المعركة كان من نصيب الأمير ابن الحنش وحده . أما الأُمراء من حلفائه فقد أُفرج عنهم، بعد أن سُجنوا مدةً في قلعة (حلب) .

لكنّ هذا المُضطّرَب السياسيّ ـ العسكري العنيف كان له من التأثير الباقي على الشيعة في المنطقة إجمالاً، أن انتهت إمارة بني بشارة في(جبل عامل) ، بعد هزيمتهم على أيدي بني الحنش سنة ٩٠٩ هـ/١٥٠٤ م . وأن صعدَ بنو الحرفوش إلى مستوى إمارة في(بعلبك) .

ـــ البطل الثاني : هو السيد حسين بن موسى الحسيني (ت:٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) ، نقيب الاشراف في مدينة (بعلبك). وذلك بوصفه المُتولّي على وقفيّة الأمير تنكز بن عبد الله الحسامي ، كافلُ

"الشام" (ق:٧٤١هـ / ١٣٤٠م) السّابقة على مقام نوح نفسه . ونصّها مُقتَبَسٌ ضمن الوثيقة الأساسيّة موضوع هذه القراءة . نقول هذا مع الاحتفاظ بموقعٍ لائق لحفيده السيّد علوان بن علي الحسيني من أصل تحريرالوثيقة .

(٢) في مُنشئها

والسيد حسين هو سلفٌ لأُسرةٍ من أعرف أُسرات مدينة (بعلبك) اليوم ، تُعرف بآل مرتضى . ومنها فرعٌ يقطنُ دمشق . عُرفت وما تزال باهتمامها البالغ بتولّي الأوقاف ، والإشراف على استثمارها وماليّتها ، وتلقّي مختلف الهبات والنذور . وحتى الآن فإنّ أحد أفراد الأُسرة هو المُتولّي الرسمي على ما بقي من أوقاف مقام النبي نوح في (الكرك) ، بالتسلسل منذ جدّه البعيد . وهذه حالةٌ نادرةٌ أو فريدةٌ في تاريخ الأوقاف الإسلاميّة .

أعتقدُ أنّ السيد حسين نفسه هو المهندس الذّكيّ للوثيقة تصميماً وإخراجاً ، تاركاً أمر (تنفيذها)، أي إعطاءها الصيغة التنفيذيّة ، للقُضاة . ومن الغنيّ عن البيان أنه صبّ كلَّ جهده على ضمان الولاية لنفسه أولاً ، ثم من بعده لأولاده وأولادهم ، وأولاد أولاد أولادهم ، ثم إلى أعقابه وأنساله أبداً ماداموا وبقوا.مع حصْر حق التوظيف والاستخدام به وبهم من بعده . وضمّنها كلَّ ما يخطر بالبال

من صنوف الرّوادع الدينيّة ، من آياتٍ كريمةٍ وأحاديث شريفة . وحصّنها بالشهادات والتنفيذات على القُضاة في(دمشق) و (بعلبك) . كلُّ ذلك كي لا تُحدّث أحداً نفسُه بأن يمُدَّ يده إلى حصن الأُسرة الحصين .

(٣) في نقدها

من المناسب أن نُشير بسرعةٍ وإيجاز إلى أنّ كلّ مانعرفه من فقه الوقف هو من باب تنظير ماهو واقع . وليس العكس كما يُفترَضُ أن يكون موقع الفقه من موضوعاته . ومن ذلك أنّك لاتجِد في كُتُب الفقه القديمة وكُتُب مصادره باباً مخصصاً للوقف . بل إنّ ما يُذكر من أحكامه تجِده في كُتُب الحديث الشريف ضمن باب الوصايا . على أن ذلك لاينفي أصل صحّة الوقف (يُنقلُ المنع عن الإمام أبي حنيفة) . لكن من باب أصالة سُلطة الناس على أموالهم ، وعلى أصالة صنوف البـرّ والصدقات وأعمال الخير. لكنّ الشّك ينـالُ فقط الإضافات التي علقت بما بات معمولاً به بين الناس في هذا الشأن . ومن ذلك تلك الولاية المُتسلسلة في أخلاف المُتولّي الأول للوقف دون انقطاع ، التي يبدو أنها من ابتداع السيّد حسين بن موسى الحسيني ، نقيب أشراف "بعلبك" ، هو ابتداعٌ ذكيٌّ دون ريب . لكنّه يطرح سؤالاً على سُلطة الواقف على الأجيال الآتية من بعده ، بحيث يُعيّنهم تعييناً افتراضيّاً .

ذلك ما يرى فيه من الفقهاء ، أنّه خلاف القواعد الفقهيّة في هذا الباب وغيره .

ولقد قلنا أعلاه أنه إن يكُن أصل الوقف (تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة) أمراً مشروعاً ، حتى في غياب النصّ الصريح عليه ، لمكان سُلطة الناس على أموالهم والحثّ على الصدقات والمبرّات . ومنه فرْض المتولّي الفعلي على الموقوف ، قبل أن يخرج الأمرُ من يده ويتحوّل وقفاً، لحاجة الموقوف إلى مِن يباشره ، ـ فإنّ فرْضَ متولٍ مُتجدّد في مستقبل الأيام مهما بعُد في الزمان ، يبدو خارج الأُصول الفقهيّة. ذلك لأنّ سُلطة المالك على مايملك تنتهي بموته . وبعده يتحوّل المالُ إلى ترِكة أو وصيّة أو صدقة أو حقٌّ للدّائنين . أمّا في هذا النّمط من التولية المُتسلسلة ، فإنّ إرادة المالك/الواقف تتوجّه مباشرةً إلى شخصٍ مُفترَض ، فتمنحه حقوقاً حصريّةً في التّصرُّف لم يعُد يملكها بعد أن أكله التراب. ذلك حقاً من الغرائب .

وممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه : (أنّ السيّد حسين بن موسى الحسيني هو مُبتدع هذا النمط من التولية) أنّ كاتب نسختنا من التولية ، وهي مُصوّرةٌ عن النسخة الأصليّة كما سنعرف ، لم يُحسن كتْب وفهم عبارة وردت مراراً فيها ، لأنها كانت جديدةً عليه . فكتب مراراً وتكراراً "الأرشد في الأرشد"، يعني(الأرشد فالأرشد) ، بالعطف بالفاء الذي يُفيد الترتيب بفاصلٍ زمنيٍّ قصير. ولو انها كانت من العبائر المألوفة لديه

ولدى أمثاله لَما وقع في هذا الخطأ الفاحش.

ثم أنّ الحفيد السيّد علوان احتذى بأمانةٍ تامّةٍ الخُطى الذّكيّة لجدّه في وثيقة التولية التي تخصّه ، ولم نرَهُ يخرج عليها حتى في أتفه التفصيلات .

ومن هنا ذهبنا إلى أنّ السيّد حسين هو البطل الثاني للوثيقة، في الشّكل على الأقلّ .

(٤) في مصدر الوثيقة ووصفها

جرت عادة الباحثين على إيراد خصوصيّات المخطوط الذي يعملون عليه في مطلع المقدمة . لكنني آثرتُ أن تكون هنا في خاتمتها ، بعد أن يكون القارئ قد استوعب ما ينبغي استيعابه من مشكلاتها .

أصل وثيقة الوقفيّة محفوظٌ في دفترٍ بالأرشيف العثماني بـ (استانبول) ، تحت عنوان " بعلبك ". رقمه ٥٥١ . احتلّت الوثيقةُ منه الصفحات ٢٨١ ـ ٢٨٤.

الدفتر بقياس (٤١×١٩،٥) . الوثيقة كُتبت بالمداد الأسود ، بخط الرّقعة . وهي مقروءةٌ إجمالاً . مسطرتها سبعةٌ وأربعون سطراً . في السطر ١٨ كلمة غالباً . والنصُّ لا يخلو من أخطاءٍ نحويّة أو لغويّة أو إملائيّة. سوف نُصحّحهامع الإشارة إلى موضع التصحيح في الهامش.

وقد سبق صديقُنا الدكتور محمد عدنان البخيت إلى نشر نصّها ملحقاً ببحثه " دور أُسرة آل الحنش والمهامّ التي أُوكلت إليها في ريف دمشق الشام" الذي قدّمه إلى ندوة :

Land Tenure and social transformation in the near east

ثم نُشر نصّها الأصلي في المجلد الثاني لمجموعة أوقاف دمشق / ١٩٦ ـ ٢٠٠، المحفوظ في مديريّة أوقاف دمشق. وعن هذا أخذنا صورة النّصّ ، بما أحاط به من تنفيذات وشهادات .

[تنفيذات كُتبت في رأس الوثيقة]

كتاب وقف شرعي يُعمل بمقتضاه ويُعوّل على ماحواه . حرره العبد الفقير إليه سبحانه محمد ذهني القاضي بمدينة بعلبك المحميّة .

[ما][١] حُرّر في هذه الوثيقة الشرعيّة والصحيفة الرائقة المرعيّة هي من أصل الوقف وشرائطه والحبس وضوابطه . صحّ لديّ ، وتحقّق بين يديّ ، وحكمتُ بصحته [....] [٢]. كتبه العبد الفقير محمد بن عبد الرزاق القاضي بمدينة بعلبك .

كتاب وقف شرعي يُعمل بمقتضاه ويُعوّل على ماحواه . حرره العبد الفقير إليه سبحانه حسن القاضي بمدينة بعلبك المحروسة .

لمّا عُرض عليّ هذا الكتاب المطابق للشرع المستطاب حررته وأمضيته . وأنا الفقير إليه سبحانه وتعالى علي القاضي بمدينة بعلبك .

ما أفصح عنه هذا السِّفر المُستطاب موافق الشريعة من نهج الصحابة . فلا شك بالعمل منه ، إذ لا شُبهة تعتريه . نمّقه أفقر العباد إلى ربّه الجواد محمد بن الشيخ إسماعيل الحجازي ، القاضي بمدينة بعلبك المحميّة ، حُميت [٣] عن البليّة .

كتابُ وقفٍ يُعمل بما فيه ويُعوّل على ما يحويه . حرّره العبد الفقير إليه سبحانه علي القاضي بدمشق المحروسة عُفي عنه .

لمّا رأيت هذا الكتاب موافقاً للشّرع الصواب،قرأته بمقابلة الخصم (؟) ، وأمضيته . وأنا العبد الفقير إلى المولى الجليل علي بن محمد القاضي بمدينة بعلبك المحروسة عُفي عنه .

---

١ ـ زيادةٌ اقتضاها السّياق .

٢ ـ بضع كلمات غير مقروءة .

٣ ـ في الأصل : حمية . ومن الواضح أنّ هذه (التنفيذات) كُتيت بالتوالي الزمني . ما يدلُ على أنّ المقستفيد من الوقفيّة كان يحرص على تنفيذها من القُضاة ، قاضياً بعد قاضٍ .

كتاب وقفٍ شرعي يُعمل بما فيه . حرّره أفقر الورى محمد بن ولي الدين القاضي بدمشق المحروسة عُفي عنه .

صكٌّ على نهج الشريعة جاري   قلمُ القبول عليه حقّاً جاري

كتبه العبد الفقير إليه سبحانه وتعالى يوسف بن بحر الدين العلواني ، القاضي بمدينة بعلبك المحميّة عُفي عنه .

كتابُ وقفٍ شرعي يُعمل بما فيه شرعاً . حرّره الفقير إليه سبحانه ، الرّاجي منه عفوه وغفرانه حسين بن يحيى القاضي بمدينة بعلبك عُفي عنه .

يُعمل بما فيه شرعاً. نمّقه العبد الفقير والي بن محمد القاضي ببعلبك ، عُفي عنهما .

الحمد لله حمداً يليق به .

نصُّ الوقفيّـة

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص / ١] قال الله تعالى أصدق القايلين مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة ماية حبّة والله يضاعف لمن يشاء والله واسعٌ عليم ولا يضيع اجر المحسنين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

حضر لديّ مولانا وسيدنا شيخ الإسلام والمسلمين وارث علوم الأنبياء والمرسلين مفيد الطالبين حجة الحق على الخلق أجمعين المحفوف بعناية الملك العلاّم أبوالمناقب شمس الدين محمد بن مفتي المسلمين ملك الفقهاء والمحدّثين المرحوم طاهر قاضي قضاة الإسلام والمسلمين ينبوع الفضل والكلام وهو بمجلس حكمه العزيز بدمشق الشام أدام الله تعالى إجلاله ونفّذ أحكامه وختم بالصالحات أعماله بحق محمد وآله حضرت مفخر الأمراء الكرام ذو القدروالاحترام جامع المجد والكرم والسيف والقلم الابن الجليل محمد بن المرحوم الأمير الجليل ناصر الدين المعروف بالحنش [ص/ ٢] أدام الله تعالى مجده ورحم أباه وجدّه الأمير على البقاع مع كرك نوح النبي عليه السلام ونواحيها وأحضر معه مفخر السّادة الأجلاء العالم العامل المحقق المحدّث فرع الشجرة الطاهرة الزكيّة وطراز العصابة الهاشميّة النبويّة وغصن الدوحة النامية المصطفويّة ذو الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر النسّابة فخر الديار البعلبكيّة وأمير السّادة الاشراف الحسينيّة قدوة علماء السّادة الشافعيّة وورثتهم الباهجة المُضيّة مولانا وسيّدنا مفخر السّادة الأجلاء

والاشراف الكرام السيد علوان بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين مولانا السيد علي بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين جامع الشرف والتقوى والدين مولانا السيد حسين أعزّه الله تعالى وزاد شرفه عظماً وأنجح في الدارين قصده ، ورحم أباه وجدّه وهو النقيب على السّادة الاشراف الكرام والمتولّي والناظر على أوقاف النبي نوح على نبينا وعلى سائر الانبياء أفضل الصلوة وأتمّ التسليم وأشهد على نفسه لمولانا وسيدنا الحاكم المشار إليه أنه وقف وحبّس وأبّد وأخرج عن ملكه جميع وقفه هذا على الشروط الآتي ذكرها فيه من غير زيادةٍ ولا نقصان ولا يُعدى بوجهٍ ولا سبب من سائر الأوجُه وسائر الاسباب الشرعية وذلك:

جميع الطاحون المعروفة بالمخطبيّة تابع البقاع حجريَن ، الرّاكبة على نهر الغزير ومنه دورانها . التي حدّها من القبلة قبلة الطريق ، وشرقاً النهر وتمامه الباب، وغرباً النهر. وتمامه أرضٌ داخلةٌ في الوقف سيأتي ذكرها وشمالاً النهر.

ومن ذلك جميع الطاحون المعروفة بالجامعة تابع كرك ، حجر واحد ، الرّاكبة على نهر البردون [1] ومنه دورانها ، الكاينة فوق الجسر في الغرب منه . حدّها من القبلة النهر وشرقاً الطريق وفيه الباب وغرباً النهر وشمالاً كذلك .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض الكاينة لصيق طاحون المخطبيّة وينتهي حدّها إلى الجسر.وشهرتها في مكانها تُغني عن التحديد

---

١ ـ هو النهر الذي يخترق مدينة زحلة . يُعرف اليوم بـ (البردوني) . أمّا "الحجر" فالمعنيّة به آلة الطحن الحجريّة التي بدورانها تطحن الحبوب . وقد يكون في الطاحون واحداً منها أو أكثر . فهذا تنصيص على أن ذلك الطاحون كان صغيراً .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة في المعبديّة تابع بر الياس [٢] حدّها من القبلة أراضي السعادة وشرقاً أراضي بلوطيا وغرباً تل الصرحون وشمالاً أراضي تربل [٣] .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة في الشرقيّة تابع البقاع ولها أوصاف وشُهرة في مكانها تُغني عن الوصف والتحديد .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بحقل التوت من أراضي قرية علين[٤]التي حدّها قبلة أرض الحصاصا وشرقاً أرض المالك وغرباً الطريق وشمالاً أرض محمد عبد الله.

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالحمراء من أراضي كفرعنا تابع الفرزن[٥] الكاينة قرب الجسر . حدها من القبلة الطريق وشرقاً كذلك وغرباً النهر المنيع وشمالاً أرض سليخ .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض تابع رعيت [٦] المعروفة بالوقف ، التي حدّها من القبلة ساقية حُشْمُش، وشرقاً الطريق يدور مع الساقية، وغرباً أراضي عرجموش[٧] ، وشمالاً ملك عبد الله .

---

٢ ـ قرية معروفة على الطريق الرئيسيّة المعروفة تاريخيّاً باسم (طريق الشام) .

٣ ـ قرية على الطريق المُتفرّع شرقاً من (طريق الشام) ، مقابل (الكرك) من غربها .

٤ ـ ليس في سهل البقاع اليوم قرية بهذا الاسم . فيبدو أنّها درست .

٥ ـ قريةٌ قائمة شرقي (الكرك) تُعرف اليوم بـ (الفُرزُل) .

٦ ـ قريةٌ قائمة في البقاع الغربي .

٧ ـ قريةٌ يرد ذكرها كثيراً في المصادر بفضل وجود قبرٍ فيها منسوب إلى (جبلة) بنت نوح .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالجفوف تابع كرك ، التي حدّها من القبلة الطريق وشرقاً جسر مسعود وغرباً البستان وشمالاً الطريق .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالرُّجم تابع كرك ، التي حدّها حقل الروض وشرقاً البستان وغرباً الطريق وشمالاً في يد أربابه .

ومن ذلك جميع القطعة الأرض المعروفة بالبرّانيّة ، تابع كرك ، التي حدّها من القبلة أرض وقف جامع السيّد، وشرقاً ملك محمد ، وغرباً كذلك ، وشمالاُ حقل سليخ [١] بيد أربابه .

ومن ذلك جميع البستان التوت تابع كرك ، الذي حدّه من القبلة ملك الحاج أيوب، وشرقاً البستان ، وغرباً ملك السيّد ، وشمالاً النهر .

ومن ذلك جميع البستان المعروف بالطحّان تابع كرك . وشهرته في مكانه تُغني عن الوصف والتحديد .

ومن ذلك جميع نصف البستان [ص/٢] الكاين قرب الحمّام . المشتمل على أشجار توت وجوز وغير ذلك. إلى حدّه من القبلة الطريق السّالك، وشرقاً بستان السيّد، وغرباً البياد، وشمالاً ملك الشيخ عبد العال .

ومن ذلك جميع كامل البستان المعروف بالشمعة تابع كرك . الذي حدّه من القبلة البستان بيد أربابه ، وشرقاً الفريجيّة ، وغرباً الطريق ، وشمالاً بيد أربابه .

ومن ذلك جميع نصف البستان تابع كرك . المشتمل على أشجار توت وجوز وغير ذلك . حدّه من القبلة الطريق ، وشرقاً بستان

١ـ غير مزدرع .

الحاج أيوب ، وغرباً بيد الجاموس ، وشمالاً البستان بيد أربابه . بجميع حقوقها كلّها وطُرُقها ومرافقها، من كلّ حقٍ فيها داخلٍ فيها وخارج عنها . وقفاً مؤبّداً مُحرّماً ، وإيقافاً ثابتاً ومُحياً دائماً سرمداً . لا يُباعُ أصل ذلك ولا يوهَب ولايُناقَل ولايُتلَف ، ولا يخرج إلى ملك أحد . كلَّ ما مرّ به زمانٌ أكّده . وكلَّ ما أتى عليه حينٌ وأوانٌ أمدّه وسدّده . فهو مُحرّمٌ بحرمان الله تعالى ، مدفوعٌ عنه بقوّة الله تعالى ، يُبتغى به مرضاة[١] الله تعالى.لايحلُّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخِرِ،ويعلمُ أنه لربّه الكريم صاير. ينقض هذا الوقف ولا يُغيّره ولا يزيده عن وجهه وشروطه الآتي ذكرها لا بوجهٍ ولا بسبب . على مُبتدا أن يكون جميع غِلال ذلك على عمارة المشهد الذي فيه قبر نوح المُشار إليه صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى عمارة أوقافه ، وعلى خدامه المقيمين فيه ، وللمتولّي والناظر عليه . وسلّم كلَّ ذلك لمولانا وسيدنا السيد علوان المُشار إليه . فاعترف بالتسليم تسليماً شرعيّاً . ثم شرِط له التولية والنظر على وقفه هذا له ، ثم من بعده لأولاده وأولاد أولاده ، ولأعقابه وأنسابه أبداً ما داموا ودائماً ما بقوا الأرشد فالأرشد [٢] منهم . وفوّض إليه التصرّف في ذلك . وعلى أنه لايُوجّه وظيفةٌ ولا خدمةٌ إلا لمَن يرضاه المُتولّي منهم. وعلى أنّ وقفه هذا لايؤجر لمُتغلّبٍ ولالذوي شوكة. ولايؤجَرُ إلا سنةً بسنة . شرطاً شرعياً. وقبِلَ ذلك منه مولانا السيّد علوان المُشار إليه القبول الشرعي . وفوّض إليه التصرُّف في ذلك . وأن يكون ذلك مُتابعاً

١ـ في الأصل : مرضات .

٢ـ في الأصل : الأرشد في الأرشد .

لِما شرطه المرحوم المغفور له تنكز [1] أمير الأُمرا بدمشق الشام سابقاً في وقفه رحمه الله المُبرَز بيد مولانا السيّد علوان المزبور في المجلس . فتأمّله الحاكم المُشار إليه، ثم أمر بنقله حرفاً بحرف [2] بهذا الكتاب ، وهو مضمونه :

١ـ هو الأمير سيف الدين تنكز الحُسامي ، والي / كافل الشّقّ الشامي من رقعة الدولة المملوكيّة ، التي عاصمتها المحلّيّة مدينة دمشق . ولي بتاريخ ربيع الآخر سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م حتى أواخر السنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩م ، أي أن ولايته طالت ثمانيةً وعشرين سنة قمريّة . جمع أثناءها ثروةً هائلة من النّقد والأراضي والضّياع والجواهر والمصوغات الذهب والأقمشة الثمينة النّادرة . أوقف جملةً من ثروته العقاريّة ، على مادرج عليه الأُمراء المماليك في شيخوختهم ، لأنهم يعرفون أنّها ستُنهب على كل حال بعد وفاتهم . والنّص التالي هي صيغة وقفيّتها . حيث ولّى عليها السيّد حسين بن موسى بن علي الحسيني . وهو من أسلاف الأُسرة الكبيرة المعروفة اليوم بآل مرتضى في بعلبك ودمشق .

انظر الترجمة المبسوطة له للمؤرخ المعاصر خليل بن أيبك الصفدي (ت:٧٦٤هـ /١٣٦٣م) في كتابه *أعيان العصر وأعوان النصر* ، ط. بيروت ١٤١٨ هـ/١٩٩٨م : ٢ / ١٢٧ـ ٣٤ .

٢ـ في الأصل : حرف بحرف .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين. وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين

حضر لديّ مولانا وسيدنا ، شيخ الإسلام والمسلمين ، مُفيد الطالبين ، حجة الله على الخلق أجمعين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، قاضي القُضاة علاء الدين ، مفتي المسلمين ، أوحد العالَمين ، صدر المدرّسين، وليُّ أمير المؤمنين أبو[١] الحسن علي بن سيّدنا ومولانا قاضي القُضاة ، مفتي المسلمين ، أوحد العُلما والمدرّسين، ولي أمير المؤمنين المرحوم أبي بكر بن محمد، القاضي بمدينة دمشق وأعمالها، أدام اللهُ تعالى تأييده ، ـ حضرة [٢] أمير الأُمراء الكرام ، وكبير الكُبرا الفخام ، ذو القدر والاحترام ، صاحب الخيرات والمبرّات ، رافع الكُرَب والمضرّات ، أبو الفقرا والمساكين، قايد جيوش المسلمين ، المحفوف بعناية الملك المُعين آمين ، مولانا وسيّدنا سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي ، كافل ولاية دمشق الشام . أبّد الله تعالى أيامه ، وختم بالصالحات أعماله ، بحقّ محمد وآله . وأحضر معه مفخر العُلما والمدرسين، قدوة الفقهاء والمحدّثين، السيّد الجليل الشريف الحسيب النسيب ، فرع الشجرة الطاهرة الزّكيّة ، وطراز العائلة الهاشميّة ، وغصن الدوحة النامية المصطفويّة . ذو الحسب الزاهي الزّاهر ، والنسب الباهي الباهر ، مولانا وسيدنا السيد حسين بن المرحوم السيّد الجليل، شيخ الإسلام والمسلمين، صدر المدرسين، السيد موسى بن المرحوم السيّد الجليل الشريف ، شيخ

١ـ في الأصل : أبا .

٢ ـ في الأصل : حضرت .

الشيوخ والمحدّثين السيد علي الحسيني زاد اللهُ تعالى شرفَه عِظَما. وهو الأمير على السادة الاشراف دام مجده ، ورحم أباه وجدَّه . المتكلّم على وقف حضرة نبي الله تعالى نوح صلّى الله عليه وسلّم . وقرّر أنه كان رتّب من وقفه السابق على تاريخه في كلّ سنة خمسين[١]غرارة حنطة . تُصرف على عِمارة المشهد الذي فيه قبر نوح صلّى الله عليه[ص/٣] وسلّم . وعلى عِمارة أماكنه ، وعلى خُدّامه ، وعلى مطبخه في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان . وأن يكون المتولّي على صرفها والناظر على صرفها والنّاظر عليها مولانا السيّد حسين المزبور.وأنه أحاله عوضاً عنها ثُلث قرية المرج ، وثُلث مزرعة السعادة التي هي تابع البقاع،بالقُرب من النبي عليه السلم.المعلومتين الداخلتيَن في كتاب وقفه السابق على تاريخه

فبمقتضى ذلك لم يبقَ يسوغ لمولانا السيد حسين المتولّي المُحال المُعوّض المذبور طلب شيء من الخمسين غرارة . لكونه تعوّض عنها من الوقف بثُلث قرية المرج وثُلث مزرعة السعادة . ولا يسوغ لمولانا وسيّدنا الواقف المُحلّ المشار إليه أعلاه التعرّض لثُلث قرية المرج وثُلث مزرعة السعادة المزبورتين ، لكونه عوّض بهما وأحال عليهما . وقبِل ذلك مولانا السيّد حسين المزبور لجهة الوقف القبول الشرعي .

وبمقتضى ذلك صار ثُلث القرية وثُلث المزرعة المزبورين وقفاً صحيحاً شرعيّاً على حضرة النبي نوح عليه السلم، من جانب مولانا وسيّدنا الصدرالأعظم والكبير المقام، أمير الأُمرا الكرام تنكز كافل ولاية دمشق الشام، المشار إليه أعلاه ، بلّغه الله تعالى مايتمنّاه . وسلّم ذلك الوقف المزبور لمولانا وسيّدنا السيّد حسين ، المتولّي المزبور أعلاه .

١ـ في الأصل : خمسون .

فاعترف بالتسليم تسليم مثله شرعاً . ثم أشرط أن وقفه هذا لا يؤجر ولا يُضمّن لأحد ولا يُناقَلُ فيه. بل يُقسَم دائماً في كل شهرلجهة الوقف . ويُصرف على عِمارة المشهد الذي فيه قبر نوح صلّى الله عليه وسلّم ، وعلى عِمارة أماكنه ، وعلى خُدّامه ومطبخه في الثلاثة أشهر ، شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان المُعظّم . وأن تكون التولية والنظر والتّكلُّم على وقفه هذا لمولانا وسيّدنا السيد حسين المشار إليه . ثم من بعده لأولاده وأولاد أولاده وأعقابه وأنساله أبداً ما داموا ودائما ما بقوا ، الأرشد فالأرشد منهم . وعلى أنّه لا يقف في خدمة النبي عليه السلام منهم إلا مَن يرضاه المتولّي منهم . وفوّض لهم ذلك التفويض الشرعي ، شرطاً وتفويضاً شرعيين. فلا يحلُّ لأحدٍ يؤمن بالله وباليوم الآخر، يعلم أنه إلى ربه الكريم صاير، أن ينقض هذا الوقف،أو يُغيّره عن وجهه وشروطه . ومَن غيّره أو بدّله أو ناقصه أو تعدّى [١] شروطه ، فعليه لعنة [٢] الله والملايكة والناس أجمعين . وكان خصمه في القيامة محمد خاتم النبيين وسيّد المرسلين صلّى الله عليه وآله أجمعين. وحُرم شفاعته يوم الدين. ومن بدّله من بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه. يوم تجِدُ كلُّ نفسٍ ماعملت من خير مُحضَراً،وماعملت من سوءٍ تودُّ لو انّ بينها وبينه أمداً بعيدا.ويُحذّركم الله نفسه والله رؤوفٌ بالعباد.وأشهد بذلك على نفسه الكريمة في صحةٍ منه ورضىً وسلامة . في العشر الأخير من ذي القعدة الحرام سنة إحدى وثلاثين وسبعماية من الهجرة النبويّة المحمديّة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التحيّة .

---

١ ـ في الأصل : تعدا .

٢ ـ في الأصل : لعنت .

وفي أعلى[1] الأصل المذكور علامة [2] الحاكم ، المُثبَت له والولي . به ما قرأتُه : الحمدُ لله وبه أكتفي . وهو حسبي ونعم الوكيل .

وفي أدناه رسم شهادات اثنى عشر نفراً :

ـ الأول ماقرأته : أشهدُ بصحة ما نُسب إلى مولانا الحاكم من الثبوت والوقف.ومانُسب إلى مولانا الواقف حسب ماأوقف وأشرط . وأقول بصحة ذلك.وأنا العبد الفقير إلى الله محمد الشافعي المفتي بدمشق الشام .

ـ والثاني ما قرأته : حضر ذلك ، وشهد كذلك ، العبد الفقير أبو اللطف أحمد الحنفي المفتي بدمشق .

ـ والثالث ما قرأته : أشهدُ بذلك وأقولُ كذلك . وأنا العبد الفقير أبو[1] العباس أحمد المالكي المفتي بدمشق .

ـ والرابع ما قرأته : أشهدُ عليهم بما نُسب إليهم . وأنا العبد الفقير علي الحنبلي المفتي بدمشق .

ـ والخامس ما قرأته : أشهد بذلك كذلك . علي بن محمد الفقير.

ـ والسادس ما قرأته : أشهدُ بذلك . عمر الفقير .

ـ والسابع ما قرأته : أشهدُ بذلك. محمد الفقير .

ـ والثامن ما قرأتُه : يشهدُ بذلك مولانا الشيخ محمد بن المنير . كُتب بإذنه .

ـ والتاسع ما قرأته:شهد بذلك فخرُ الأعيان والأماثل المقدّم محمد .

ـ والعاشر ما قرأته : شهد بذلك فخر الأماثل الأمير عثمان .

ـ والحادي عشر ما قرأته : شهد بذلك الفقير علي .

ـ والثاني عشر ماقرأته: يشهد بذلك محمد كاتبُ الأصل المذكور .

---

١ ـ في الأصل : أعلا . ٢ـ يعني توقيعه المكتوب بطريقةٍ خاصّةٍ بالكاتب .

[تذييلٌ على صكّ الوقفيّة . وفيه تعريف بالشهود المذكورين أعلاه . وهو متأخّر عن تاريخ كتْب أصل الوقفيّة] .

هذه صورةُ ما وُجد في الأصل المذكور حرفاً[١] بحرف . وهو متصلٌ [ص/٤] بشهادة الشيخ محمد كاتبُ أصله ، وبشهادة الشيخ علي ، ثالثُ عشر الشهود المذكورين :

"جميعُ ما نُسب إلى مولانا وسيدنا أقضى القُضاة علاء الدين ، مفتي المسلمين ، ولي أمير المؤمنين ، أبي الحسن علي بن المرحوم قاضي القُضاة ، مفتي المسلمين، ولي أمير المؤمنين، أبي بكر بن محمد القاضي بدمشق المُشار إليه.

وما نُسب إلى المرحوم مولانا الواقف المُشار إليه من وقفه وشرائطه ، وسائر ما نُسب إليه رحمه الله تعالى ، لمولانا وسيّدنا شيخ الإسلام والمسلمين ، صدر المدرّسين ، ولي أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد ، قاضي القضاة بدمشق ، الاتصال الشرعي . وبصره [٢] وحكم بصحته وأوقعه على وجهه مولانا شيخ الإسلام والمسلمين تقي الدين أبو[٣] بكر بن الشيخ محمد ، المتولي على وقف جامع المرحوم تنكز الواقف المُشار إليه . بالالتماس الشرعي من مولانا السيد حسين ، المتولّي المشار إليه أعلاه . مؤرخ أواسط شهر محرم الحرام سنة اثنتين وستين وسبعماية .

---

١ ـ في الأًصل : حرف بحرف .

٢ ــ أي : رآه .

٣ ـ في الأصل : أبي .

ومُتصلٌ بشهادة الشيخ حسن بن الشيخ محمد ، وبشهادة الشيخ عمر بن الحاج عبد الله "جميع ما نُسب إلى مولانا وسيدنا شيخ الإسلام والمسلمين ، صدر المدرّسين ، ولي أمير المؤمنين ، عبد الله محمد قاضي القُضاة بدمشق ، من الاتصال والحُكم والإيقاع . وسائر ما نُسب من الاتصال إليه لمولانا شيخ شيخ الإسلام ، قاضي القُضاة ، صدر المدرّسين ، ولي أمير المؤمنين ، أبي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الإسلام شمس الدين محمد ، القاضي بدمشق ، الاتصال الشرعي . بالتماسٍ شرعي من مفخرة السّادة الكرام ، السيّد الشريف علايي الدين علي بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين السيّد حسين المُشار إليه أعلاه. مؤرّخٌ في أواخر شهر شعبان سنة تسعين وسبعماية .

ومُتصلٌ بشهادة الشيخ علي بن الشيخ أحمد المالكي . وبشهادة الشيخ إبراهيم بن الشيخ عبد الله : "جميع ما نُسب إلى سيدنا قاضي القُضاة ، صدر المدرّسين ، ولي أمير المؤمنين ، أبي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الإسلام شمس الدين محمد ، القاضي بدمشق ، من الاتصال والحكم والتنفيذ والابقا ، وساير ما نُسب إلى مولانا وسيّدنا ، قدوة القُضاة والحُكّام ، ينبوع الفضل والكلام ، أبي عبد الله محمد بن الشيخ العارف إبراهيم الحسيني ، الحاكم يومئذٍ ببعلبك ، الاتصال الشرعي . بالتماسٍ شرعيّ من مولانا وسيّدنا شيخ الإسلام السيّد الجليل الشريف علايي الدين علي بن المرحوم شيخ الإسلام السيّد الشريف حسين ، المتولّي على الوقف المُشار إليه " . مؤرّخٌ في أوائل شهر رجب سنة خمسٍ وعشرين وثماني [١] ماية .

---

١ ـ في الأصل : سنة خمسة وعشرون وثمان . ....

ومُتصلٌ بشهادة الشيخ محمد بن الشيخ عمر البوني[خ.ل.:البوبي] . وبشهادة الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الحافظ "جميع ما نُسب لمولانا وسيّدنا شيخ الإسلام ، قدوة القُضاة والحُكّام ، ينبوع الفضل والكلام ، أبي عبد الله محمد بن الشيخ العارف إبراهيم الحسيني ، الحاكم بمدينة بعلبك ، من الاتصال والحكم والتنفيذ . وسائر ما نُسب إلى مولانا وسيّدنا شيخ الإسلام والمسلمين، أوحدُ العالَمين، صدر المدرّسين ، أبي [١] الوفا شمس الدين محمد بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين ، صدر المدرسين ، أبي المواهب نور الدين ، القاضي بدمشق الشام ، الاتصال الشرعي . بالتماسٍ شرعيٍّ من فخر السّادة الأشراف الكرام ، السيد الشريف محمد بن المرحوم السيد الشريف علي . الوصي الشرعي على الطفل القاصرالسيّد الشريف علوان بن المرحوم شيخ الإسلام ، السيّد الجليل ، نقيب السّادة الأشراف ، علي بن المرحوم السيد الشريف حسين المُشار إليه . المُنحصر به التوليةُ والنظر على هذا الوقف الانحصار الشرعي . وأذن مولانا الحاكم للسيّد المزبور أن يتعاطى مصالح الوقف المزبورإلى رُشد السيد علوان المزبور . وذلك حسب ما أوصى به والده رحمه الله تعالى . . اتصالاً وتنفيذاً وإذناً مقبولة [٢] شرعاً ". مؤرّخٌ في الخامس من شهر ربيع الآخرة سنة خمسٍ وخمسين وثمانماية .

---

١ ــ في الأصل : أبا .

٢ـ في الأصل : مقبولان .

ومتصلٌ بشهادة الشيخ عبد الغني بن الشيخ محمد . وبشهادة الشيخ علي بن الشيخ [ص/٥] عزّ الدين "ما نُسب إلى مولانا وسيدنا شيخ الإسلام والمسلمين ، صدر المدرّسين ، أبي الوفا شمس الدين محمد ، بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين ، صدر المدرّسين ، أبي المواهب نور الدين ، القاضي بدمشق الشام ، من الاتصال والإذن والتنفيذ . وسائر ما نُسب لمولانا وسيّدنا شيخ الإسلام والمسلمين ، أوحد العلماء والمدرّسين ، أبي الفضل علا الدين بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين ، أوحد العلماء والمدرّسين ، أبي الفضل علا الدين بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين ، قدوة الفقهاء والمحدّثين ، أبي المكارم خير الدين ، القاضي بدمشق الشام ، الاتصال الشرعي ، أوقعه على وجهه الشيخ حسن بن الشيخ محمد الخطيب إيقاعاً شرعيّاً . بالتماسٍ شرعي من مولانا وسيّدنا شيخ الإسلام والمسلمين السيّد الشريف حسين الحسيني،المتولّي على الوقف المزبور.حسب ما هو مشروط له فيه.ومنعه من الإحداث على الوقف والطلب والتعرض له عملاً بشرط الواقف المزبور". مؤرخُ في اليوم الخميس الثاني عشر من شهر ذي الحجة الحرام سنة خمسٍ وسبعين وثمانماية.وهو آخرماوُجد فيه من الاتصالات والتنافيذ .

وفي أدناه رَسْمُ شهادة تسعة أنفار[١] :

ـ الأول ماقرأته : شهد بذلك العبد الفقيرمحمد بن علي .

ـ الثاني ماقرأته : شهد بذلك أفقر الورى محمد الحسيني .

ـ الثالث ما قرأته : شهد بذلك الفقير عمر العدوي .

١ـ هؤلاء التسعة هم الشهودعلى مُقابلة ما نُقل على أصله .

ـ والرابع ما قرأته : شهد بذلك العبد الضعيف علي النشابي .

ـ والخامس ما قرأته : شهد بما فيه شمس الدين النشابي .

ـ والسادس ما قرأته : شهد بذلك الفقير حسن البصري .

ـ والسابع ما قرأته : شهد بذلك إبراهيم الوفاء .

ـ والثامن ما قرأته : شهد بذلك العبد الضعيف علي الانطاكي.

ـ والتاسع ما قرأته : شهد محمد العدوي .

وقوبل على أصله حرفاً بحرف[١] وكلمةً بكلمة واتصالاً بعد اتصال،المُقابلة الشرعيّة . وثبتت مقابلته لدى مولانا شيخ الإسلام الآمر بنقله الثبوت الشرعي ، بشهادة شهود آخره .

ثم اتصل بشهادة المذكورين : سيّدي عمر العدوي ، والشيخ شمس الدين النشاني ، والشيخ محمد العدوي ، لطف الله تعالى بهم وبالمسلمين : "جميع ما نُسب إلى مولانا وسيدنا شيخ الإسلام والمسلمين، أوحدُ العلماء والمدرّسين، أبي الفضل علائي الدين بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين ، وقدوة الفقهاء والمحدّثين ، أبي المكارم خير الدين ، القاضي بدمشق الشام سابقاً رحمه الله تعالى ، من الاتصال والحكم والتنفيذ والإيقاع والمنع ، وسائر مانُسب إلى مولانا وسيدنا شيخ الإسلام والمسلمين، صدر المدرّسين، حجة الحقّ على الخلق أجمعين ، وارث علوم الأنبياء والمرسلين المحفوف بعناية الملك المُبين، أبي المناقب شمس الدين محمد بن المرحوم شيخ الإسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدّثين طاهر،الآذن بنقلها ، المشار إليه أعلاه الاتصالَ الشرعي " .

فعند ذلك عيّن مولانا الأمير محمد الواقـف المشار إليه أن يكون جملة هذا

---

١ ـ في الأصل : حرف بحرف .

الوقف مُشاعاً [١]، وأن يُصرف على عِمارة النبي نوح عليه السلام ، وعلى عِمارة أماكنه ، وعلى عِمارة أوقافه والغراز [٢] ، وما فيه التماس المزيد من الوقف.ثم على تنويره وفَرْشه . ثم على مطبخه في ثلاثة أشهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان المُعظّم، وإطعام العيديَن والواردين والمنقطعين. ثم على المتولّي والناظر. ثم على خُدّامه وأرباب شعائره. حيث أنّه لايُزاد ولا يُحدَثُ على الوظائف الآتي ذكرُها، وهي إمام وخطيب والمؤذّنين وقيّم وتُربة دار [٣] وكاتب وجابي، ومَن يتعاطى مصالح المطبخ والطبخ ولوازمه ، ومن يخدم الأسطحة والماء [٤].

وذلك كلّه يكون تبعاً للمتولّي والناظر المزبور . ينصبُ لذلك مَن يختاره ويرضاه . ويصرفُ ذلك بحسب ما يُراد . مُفوّضٌ في ذلك حسب ما عيّنه الواقف المُشار إليه . ثم أشرط التّولية والنظر على وقفه لمولانا وسيّدنا السيّد الشريف حسين الحسيني ، المُشار إليه أعلاه [ص/٦] . ثم من بعده لأولاده واولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وأعقابه وانسابه ماداموا ، ودائماً ما بقوا ، الأرشد فالأرشد [٥] منهم. وعلى أنّه لا تُوجّه خدمةٌ ولا وظيفةٌ [٦] إلا لمَن يرضاه المُتولّي منهم . وأن لا تُزاد هذه الوظائف المذكورات ولا يُحدَثُ عليها . وعلى أن وقفه لايؤجر لمُتغلّب ولا لذي شوكة.بل يؤجر سنةً بسنة لمَن يرضاه المتولّي المزبور .

---

١ ـ الحقيقة أننا لم نفهم المقصود من "" المُشاع " هنا . وهو بمقدار ما نعرف ليس من اللغة الفقاهتيّة . ولعلّه يريد تقييد صفة المُتولّي

٢ ـ يبدو أنّ الكلمة كُتبت مُصحّفةً من : والغِراس .

٣ ـ يعني ، فيما يبدو لنا ، المُشرف على المدفن المُلحق ببناء المقام .

٤ ـ يعني المسؤول عن صيانة المرافق .

٥ ـ في الأصل : الارشد في الارشد .

٦ ـ في الأصل : وضيفة . وكذلك كلمة "الوظائف" الواردة توّاً .

وإن فضل شيءٌ عن ذلك فللمتولّي المزبور . وإن خاس [١] في سنةٍ من السنين عن المصروفات المزبورة فليستدن [٢] المولّى على المستقبل بحسب ما يراه . وأنّ وقفه لا يُداخله حاكمٌ ولا مّحاسب في محاسبة أو في توجيه وظيفة [٣] . بل إنه مُفوّضٌ إلى رأي المُتولّي المزبور، أو إلى رأي مَن يكون من ذرّيته ، التفويض الشرعي . وفي ذلك كذلك .

ومَن بدّله أو تعدّاه فعليه لعنة الله ، ثم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

ومن بدّله من بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه . يوم تجد كل نفس ما عملته من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيدا . ويحذّركم الله نفسه والله رؤوفٌ بالعباد

* * *

جرى ذلك بحضور الحاج عبد القادر بن كحيل ، والحاج محمد بن الشيخ عُرف بالقاضي . وبحضور الآخريَن ، هما عوّاد بك ، وعلي بك ، أولاد المرحوم الأمير محمد عمّ الواقف المُشار إليه . وصدّقوا على صحة هذا الوقف وشروطه . وأنه صدر [عن] [٤] أهله في محلّه . وقبِل منهم ذلك السيّد علوان المتولّي المشار إليه القبول الشرعي . وتصادقوا على ذلك كلّه التصادق الشرعي .

---

١ ـ كلمة عامّيّة من السريانيّة بمهنى نقص .

٢ ـ في الأصل : فليستدين .

٣ـ في الأصل : وضيفة .

٤ـ زيادة اقتضاها السّياق .

تحريراً في اليوم المبارك الثاني عشر من شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعماية . وصلّى الله على سيّدنا ونبينا محمد وآله وصحبه وسلّم .

شهد به أفقر الورى الحقير محمد العدوي   أفقر الورى محمود بن عبد الملك   عفي عنه

به أشهد وأنا العبد الفقير محمد حمزة الحسيني

شهد بذلك الشيخ محمد   شهد بذلك الشيخ علي بن عمر شيخ قرية برالياس

وبه أشهد وأنا أفقر الورى محمد الحنبلي البشاري كُتب بإذنه .

وبه شهدتُ على مولانا الواقف بما صدر لدى الحاكم وأنا الفقير يحي بن محمد الحسيني .

شهد بذلك فخر الأماثل والاعيان الأمير حسن بن الحرفوش .

شهد بذلك مولانا السيد .

شهد بذلك فخر الأماثل والأقران المقدم علي فخر الدين عثمان العباس.

شهد بذلك الشيخ علي ابن الشيخ نور الدين.

شهد بذلك الحاج محمد بن شمس الدين الخطيب لحضرة النبي نوح عليه السلام من أهل السعادة .

شهد بذلك الشيخ علي بن الشيخ عمر.

شهد بذلك الحاج فخر الدين السداوي الخطيب بقرية المرج .

شهد بذلك شيخ محمد القاضي .

شهد بذلك الشيخ محمد بن الشيخ علي البقاعي شيخ قرية المرج . وغيرهم من الحاضرين .

مكتبة البحث

ـ . . . . . : كتاب **وقف السلطان المملوكي حسن بن محمد بن قلاوون على مدرسته بالرميلة** . ط. بيروت ٢٠٠١ م .

ـ ابن حجر العسقلاني: **لسان الميزان.** ط. بيروت ١٣٩٠ هـ .

ـ ابن خردذابه : **المسالك والممالك** . ط. بريل ١٨٨٩م .

ـ ابن فضل الله العُمري : **التعريف بالمصطلح الشريف**.ط . بيروت ١٩٨٨م .

ـ ابن قتيبة : **المعارف** . ط. مصر ، دار المعارف لات.

ـ ابن كثير: **البداية والنهاية.** ط. بيروت ١٩٦٦م .

ـ ابن ماكولا : **الاكمال** . ط. حيدر آباد الدكن لات .

ـ أبو الفدا : **تقويم البلدان** . ط. باريس ١٨٤٠م .

ـ البيهقي: **تاريخ البيهقي،** الترجمة العربية .ط . بيروت ١٩٨٢م.

ـ أحمد بن محمد الدمشقي: **محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي.** ط. القاهرة ، عيسى البابي الحلبي لات .

ـ الازرقي : **أخبار مكة** . ط. بيروت ١٣٨٩هـ .

ـ أمية بن أبي الصلت: **ديوانه.** ط. بيروت ، دار الحياة لات .

ـ أنيس فريحة : **معجم أسماء البلدان والقرى اللبنانية**.ط. بيروت ١٩٨٢م.

ـ جعفر المهاجر : **التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا ط.** بيروت ١٩٧٨م .

ــ **الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني باعـث النهضة في لبنان .** نشـرة مركـز بهاء الــدين العاملي.

ــ حيدر الشهابي : **الغُرر الحسان في تاريخ أبناء الزمان** (معروف بـ تاريخ الأمير حيدر الشهابي) . نشرة الجامعة اللبنانيّة .

ــ الذهبي: **سير أعلام النبلاء** .ط. بيروت ١٣٧٤هـ .

ــ سبط ابن الجوزي: **مرآة الزمان في تاريخ الاعيان**.ط. بيروت ١٤٠٥هـ.

ــ شيخ الربوة الدمشقي: **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**. ط. بطرسبرج١٨٦٥م.

ــ صالح بن يحيى: **تاريخ بيروت** .ط. بيروت ١٩٥٠م.

ــ الصدوق: **معاني الاخبار** .ط. النجف ١٣٨٢هـ .

ــ الصفدي:**الوافي بالوفيات** .ط.بيروت، المعهد الألماني في سنين متفاوتة .

ــ طوني مفرج : **قرى ومُدن لبنان** (ضمن "الموسوعة اللبنانيّة") ، ط. بيروت ٢٠٠٢.

ــ عبد الرزاق الحسني: **الصابئة**.ط. بغداد ١٩٨٨م.

ــ عبد الغني النابلسي ورمضان بن يوسف العطيفي: **رحلتان إلى لبنان**.ط.بيروت ١٩٧٩م.

ــ عبد الله الإصفهاني: **رياض العلماء وحياض الفضلاء** . ط. قم ١٤٠١. .

ــ عيسى اسكندر المعلوف: **دواني القطوف** . ط. زحله لات .

ــ العيني: **عُمدة القاري في شرح صحيح البخاري** . ط . مصر ، مطبعة بولاق لات .

ــ محمد باقر المجلسي : **بحار الانوار**. ط . بيروت ١٤١٢هـ .

ــ محمد بن عبد الهادي : **العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية** .ط. القاهرة ١٣٥٦م .

ــ المقدسي: **البدء والتاريخ** . ط. باريس ١٨٩٩م .

ــ نعمة الله الجزائري : **النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين** . ط . إيران على الحجر لات .

ــ ياقوت : **معجم البلدان** . ط. بيروت ، دار الحياة لات .

ــ اليونيني: **ذيل مرآة الزمان** . ط. حيدر آباد الدكن ١٣٧٤هـ .